

الأمير الشائر شمس الدين آقوش البرنلي
المتغلب على حلب
بين المماليك والمغول
في الفترة من ٦٤٨ إلى ٦٦١هـ
(١٢٥٠ - ١٢٦٢م)

دكتور

وديع فتحي عبد الله

كلية الآداب

جامعة بنها

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

محتويات البحث

- مقدمة
- التعريف بالأمير شمس الدين أقوش البرنلي
- المشهد السياسي إبان الفترة موضوع الدراسة
- الأمير شمس الدين أقوش البرنلي يسترد دمشق
- الأمير شمس الدين أقوش البرنلي متغلبا على حلب
- الأمير شمس الدين أقوش البرنلي والمغول
- محاولات بيبرس ترويض البرنلي
- البرنلي في مصر
- انقلاب البرنلي على بيبرس واعتقال بيبرس له
- تحليل شخصية البرنلي في ضوء الواقع التاريخي
- خاتمة

مقدمة

تتناول هذه الدراسة جانبا من حياة أمير مملوكي طموح اختلف المؤرخون حوله. والمملوك لغة هو العبد، وهو في العرف شخص يقر بالولاء لسيده. فإذا طمح هذا المملوك إلى السيادة، أو تصور نفسه سيّدا، فثار وتمرد وتسيد قولا وفعلا، فلمن يكون ولاؤه؟ سؤال تجيب عليه سيرة حياة الأمير شمس الدين أقوش بن عبد الله العزيمي البرنلي. وإذا افترضنا أن المملوك يقر بولائه لسيّد معين، فماذا يكون من شأنه إذا تعدد السادة أو تبدلوا؟ من الطبيعي أن تتعدد الولاءات في هذه الحالة وتنبدل بتعدد السادة وتبدلهم، فيذهب المملوك بولائه كل مذهب ويميل مع كل مائل، لا تحدوه في ذلك إلا مصلحته الشخصية، ومصلحته الشخصية فقط. وهذا ما كان من أمر شمس الدين البرنلي أيضا.

والمماليك - في المصطلح التاريخي - لا يبتعدون عن ذلك التعريف كثيرا، وهو ما أثبتته تاريخ حكام مصر والشام الذين أطلق عليهم المؤرخون هذه التسمية، والذين حكموا هذه المنطقة في الفترة الواقعة بين عامي ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حين تولت حكم مصر شجر الدر¹، و٩٢٣هـ/١٥١٧م عندما سيق طومان باي آخر سلطان مملوكي (٩٢٢ - ٩٢٣ هـ / ١٥١٦ - ١٥١٧) إلى باب زويلة حيث شنق في يوم الأحد². ولم يقدر لشمس الدين البرنلي أن يكون واحدا من هؤلاء، وإن طمح إلى ذلك أكثر من مرة كما سيتبين من ثنايا هذا البحث.

¹ كانت شجر الدر تركية الجنس، أو أرمنية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٨٣-٦٤٧ هـ/١٢٤٠-١٢٤٩ م)، المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧، الجزء الأول، ص ٤٥٩. وذكر المؤرخ الإنجليزي لين بول أنها كانت جارية للخليفة المستعصم العباسي (٦٤٠-٦٥٦ هـ/١٢٤٢-١٢٥٨ م). انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.، ص ٢٠٢؛ أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦، ص ١١٩.

² شنق السلطان طومان باي عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م بعد هزيمته أمام العثمانيين في موقعة الريدانية، انظر: ابن زنبيل الرمال: آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني - تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٥٠-٢٥٢؛ ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور - تحقيق محمد مصطفى - القاهرة، ١٩٦٠، ج ٥، ص ١٧٣ - ١٧٧.

غير أن الدور المهم الذي لعبه هذا المملوك النائر في تاريخ الشام ومصرفي الفترة الفاصلة بين انهيار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية، وقلة ما كتب عنه في المصادر الإسلامية قد حمل الباحث على أن يجعل منه الشخصية المحورية التي يدور حولها هذا البحث. ولقد حاول الباحث، ما وسعته المحاولة، تتبع سيرة حياة هذا الرجل ولم أشتاتها من المصادر والمراجع النزررة التي أشارت إليها، واجتهد، ما وسعه الاجتهاد، في أن يرسم من خلال هذه السيرة صورة لفترة من أهم فترات التاريخ الإسلامي.

والمتمأمل لنشاط البرنلي الذي تحدثت عنه المصادر التاريخية يلاحظ أن هذا الرجل عاش من حياته نحو ثلاثين سنة في بلاط الأيوبيين في حلب كواحد من "أكابر المماليك"، ولكنه ظل مع ذلك نسيا منسيا لم يأت من الأعمال ما يستحق أن تذكره المصادر. ثم إذا به ينشط فجأة ويظهر على مسرح الأحداث في الشرق الإسلامي ما بين مصر والشام لمدة ثلاث عشرة سنة، هي السنوات من ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م إلى ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م. غير أن هذه السنوات الثلاث العشرة لم تكن كلها نشاطا وحركة من جانب البرنلي. صحيح أنه قام في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م بدور حاسم في دعم قيام دولة المماليك البحرية وزوال نفوذ الأيوبيين في الشام نسبيا بانضمامه مع المماليك العزيزية إلى عز الدين أيبك³ والتخلي عن مولاه الملك الناصر في العباسية، إلا أننا لا نسمع عنه شيئا في السنوات الخمس التالية لذلك والتي كان يقيم خلالها في مصر، حتى ظهر مرة أخرى فجأة في سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م متأمرا على أيبك هاربا من بطشه إلى الناصر مرة أخرى. ويطويه النسيان مرة أخرى ولمدة خمس سنوات في سجون الناصر حتى يحرق الخطر المغولي بالشام فيخرجه الناصر من السجن في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ويكرمه ويأمل في

³ عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي التركماني، هو السلطان الملك المعز عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي المعروف بالتركمانلي، أول ملوك الترك بالديار المصرية، وأصله من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي اشتراه في حياة والده الملك الكامل محمد وتنتقلت به الأحوال عنده، ولأزم أستاذة الملك الصالح في الشرق حتى جعله جاشنكير وأعتقه ومازال به حتى رقيه أميراً، اختير سلطاناً للبلاد، وأسس الدولة المملوكية. انظر: أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ج ٣، ص ١٢٧، ج ٧، ص ٣-٥.

الاستعانة به في مواجهة الخطر المغولي الزاحف على المنطقة. وينشط البرنلي في السنوات الثلاث التالية، من سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ إلى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢، نشاطاً محموداً لتحقيق طموحاته في التملك مستغلاً في ذلك كل الفرص التي سنحت له. فلا يبقى للباحث من الحيز الزمني الذي يستطيع أن يتحرك فيه باحثاً ومنقبا في سيرة هذا الأمير الثائر إلا هذه السنوات الثلاث، وهي سنوات حافلة بالأحداث التي شارك فيها، فضلاً عن دوره المهم في أحداث سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م وسنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥م.

والجدير بالتسجيل أن أبا المحاسن بن تغري بردي أشار في ختام ترجمته للبرنلي إلى اختلاف المصادر الإسلامية بشأن الأمير شمس الدين آقوش البرنلي، إذ جاء في المنهل الصافي "... وقد اختلف المؤرخون في حكاية البرنلي، رحمه الله تعالى"⁴.

التعريف بالأمير شمس الدين آقوش البرنلي

كان الأمير شمس الدين آقوش بن عبد الله العزيزي البرنلي من أكابر المماليك العزيرية وهم مماليك السلطان الملك العزيز غياث الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب (٦١٣هـ - ٦٣٤هـ / ١٢١٦م - ١٢٣٧م)⁵. ونشأ البرنلي في خدمة غياث الدين⁶ ثم انتقل إلى خدمة ولده السلطان الناصر يوسف⁷ (٦٣٤ - ٦٥٨ هـ / ١٢٣٧ - ١٢٦٠م).

4 أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

5 السلطان الملك العزيز غياث الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب. وهو ابن بنت الملك العادل الكبير سيف الدين أبو بكر بن أيوب. لتفاصيل أكثر، انظر: ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب - تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور - القاهرة ١٩٧٢م، ص ٣١٨-٣١٩؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٦، ص ١٩٤ - ترجمة رقم ١١٧.

6 أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ١٢ جزءاً - القاهرة، ١٩٢٩-١٩٥٦ ج ٣، ص ١٤ - ١٥؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر - تحقيق أحمد حطيط - فيسبادن ١٩٨٣م، ص ٣٩؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية - نشره عبد الحميد صالح - بيروت ١٩٨٧ - ٢٧-٢٨.

7 أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة - ج ٢٩، ورقة ٣٦٤ ترجمة الناصر يوسف.

ولا يعرف شئ عن نشأة هذا الأمير أكثر مما يدل عليه لقبه "العزيمي البرنلي". والمعروف أن المماليك كانوا ينتسبون غالباً إلى أساتذتهم أي سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار، وأشرفوا على تربيتهم، كانتساب المماليك الظاهرية إلى السلطان الظاهر بيبرس، والمماليك الأشرفية إلى السلطان الأشرف، إلخ.⁸ ولما كان هذا الأمير قد نشأ في خدمة السلطان الملك العزيز غياث الدين محمد صاحب حلب - كما سبق القول - فإن هذا يدل على أن هذا السلطان هو الذي اشتراه من التجار فنسب إليه. أما اللقب الآخر، "البرنلي" فقد ورد في المصادر في صور مختلفة فهو عند أبي المحاسن: آقوش بن عبد الله البرنلي، والبرناو وكلاهما لغة من اللغة التركية معناهما المأنوف⁹ وهو البرنلي عند ابن شداد¹⁰، ولكنه يرد عند ابن شداد أيضاً في موضع آخر على شكل "برلوا"¹¹، وفي موضع ثالث "برلي"¹²، وهو "البرلي" أيضاً عند المقرئ¹³، وأبي الفداء¹⁴، وشافع بن علي¹⁵، و"برلوا" عند ابن العبري¹⁶، و"إيلبرلك" عند ابن القوطي¹⁷، و(أغوش أزرلو) عند

⁸ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ١٩٧ - ١٩٨.

⁹ أبو المحاسن: الدليل الشافي على المنهل الصافي - تحقيق فهم محمد شلتوت، طبع جامعة أم القرى،

١٩٨٣م، ص ١٤٤؛ أبو المحاسن، المنهل ج ٣، ص ١٤.

¹⁰ ابن شداد، ص ٣٩.

¹¹ ابن شداد، ص ٢٨٧.

¹² ابن شداد، ص ٣٣٤.

¹³ المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٣٩، التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها -

ترجمة آقوش البرلي العزيمي، الأمير شمس الدين - مخطوط ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية -

رقم ٥١٠.

¹⁴ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، الأستانة، ١٢٨٦هـ، ج ٣، ص ٢١٤.

¹⁵ شافع بن علي (ت ٧٢٣هـ/١٣٣٢م)، كتاب حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية -

تحقيق عبد العزيز الخويطر - الرياض ١٩٧٩م - ص ٤٦.

¹⁶ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠، ص ٢٨٤.

¹⁷ ابن القوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة - نشر مصطفى جواد - بغداد

- ١٩٣٢/١٣٥١، ص ١٦٧.

رشيد الدين¹⁸ وعلى حين يطلق عليه الحافظ شمس الدين الذهبي "نائب حلب آقوش التركي"¹⁹ يكتفي السيوطي بالإشارة إلى "صاحب حلب الأمير شمس الدين آقوش"²⁰. وذكر أحمد مختار العبادي أن لفظ البرلي محرف عن الكلمة التركية برنولو ومعناها ذو الأنف الكبير أو الأنف الأحمر²¹.

هذا عن اسم الأمير، أما فيما يتعلق بمولده وظروف نشأته ومسار حياته من مولده حتى بروز اسمه فجأة في سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، عندما خرج مع الناصر صاحب حلب للاستيلاء على مصر، فإننا لا نجد في المصادر أي إشارة إلى تاريخ ميلاد شمس الدين آقوش البرنلي، أو إلى عمره عندما دخل في خدمة العزيز الذي امتد حكمه لحلب لمدة ٢١ سنة (٦١٣-٦٣٤هـ / ١٢١٦م - ١٢٣٧م)، كما لا ترد في المصادر أي إشارة إلى الظروف والملابسات التي جعلته من "أكابر" ممالك هذا الملك على حد وصف ابن تغري بردي له، فضلا عن عدم الإشارة في أي من المصادر إلى زمن حصوله على رتبة "الأمير"²²، أو أسباب حصوله على هذا اللقب، وطبيعة هذه الإمارة²³. كما سكتت المصادر

¹⁸ رشيد الدين: جامع التواريخ، المجلد الثاني، نقله عن الفارسية فؤاد عبد المعطي الصياد وآخرون، القاهرة ١٩٦٠م، ج ١، ص ٣٢٨.

¹⁹ الذهبي، دول الإسلام، دار إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر الجزء الأول والثاني، ١٩٨٨، الجزء الثاني، ص ١٦٥.

²⁰ السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ت.، ص ٤٣٩.

²¹ العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٧٠ - ١٧١ حاشية ٦.

²² رغم اصطلاح المؤرخين على تقسيم أمراء المماليك إلى طبقات ذات مراتب عسكرية، وتعيينهم للوظائف المرتبطة بكل مرتبة ومقادير الإقطاعات المخصصة لكل منها، فإن المصادر المملوكية لا تعين عدد السنوات التي يقضيها المملوك لارتقائه من الرتبة إلى أخرى. انظر السيد الباز العريني، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، د. ت.، ص ١٤٥.

²³ كان الأمراء يكونون أرفع الفئات العسكرية في عصر المماليك، وقد استخدم لفظ الأمير في زمن الدولة الفاطمية للدلالة على طبقة أو مرتبة معينة يصل إليها المقربون من رجال الدولة، ثم انتقل اللفظ إلى الدولة الأيوبية وورثته دولة المماليك ضمن ما ورثت من أنظمة الدولة الأيوبية. انظر محاسن الوقاد، وظيفة "أمير مجلس" ودورها في عصر دولة سلاطين المماليك في المرحلة من عام ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م - بحث منشور في: مصر في العصر المملوكي - دراسات حضارية، مصر العربية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ص ١٠٠-١٠١.

عن نشاط هذا المملوك طوال عهد الملك العزيز، وحتى بعد انتقاله بعد وفاة العزيز غياث الدين إلى خدمة ابنه الملك الناصر، والذي امتد حكمه لمدة ٢٤ سنة (٦٣٤-٦٥٨هـ / ١٢٣٧-١٢٦٠م). فلا يعرف عنه شئ في السنوات الأربع عشرة الأولى من حكم الناصر، حتى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، عندما استولى على دمشق، ثم سار للاستيلاء على مصر أيضا احتجاجا على تولي المماليك حكم مصر بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب²⁴. ففي هذا العام، وفي هذا العام فقط برز اسم شمس الدين أقوش البرنلي بصفته واحدا ممن ساروا في ركاب البيت الأيوبي زحفا على مصر.

وما بين خروج الأمير شمس الدين أقوش بن عبد الله العزيزي البرنلي مع السلطان الناصر يوسف الأيوبي للاستيلاء على مصر في سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، واعتقال السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري له في سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٣م²⁵ في قلعة الجبل

²⁴ السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد، ملك الديار المصرية في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٦٣هـ وولد بالقاهرة سنة ٦٠٣هـ وبها نشأ، وهو الذي أنشأ المماليك الأتراك وأمرهم بديار مصر. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٦، ص ٣١٩.

²⁵ السلطان الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي البندقداري التركي (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م)، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية والثغور الإسلامية. من مواليد بلاد القفجاق - في جنوب روسيا - وأغار التتار على هذه البلاد وأخذ بيبرس ضمن الأسرى، وعرض على الملك المنصور صاحب حماة. وكان من عادة المنصور أن يستشير والدته عند شراء الرقيق، فأحضر بيبرس مع آخر ورأتهما والدته المنصور من وراء الستر فأمرت بشراء زميله ولكنها قالت للمنصور عن بيبرس: "هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة، فإن في عينيه شرا لائحا". وكان الأمير علاء الدين أيديكن البندقدار معتقلا لدى المنصور وسمع بقصة المملوكين فاشتراهما وهو في معتقله. وعندما أفرج عن هذا الأمير انتقل بيبرس معه إلى مصر، وهناك صادف أن غضب الملك الصالح نجم الدين أيوب على علاء الدين البندقدار فاعتقله وصادر أمواله ومواليه وكان منهم بيبرس. وعلا نجم بيبرس بسرعة عند الملك الصالح وترقى في خدمته واستفاد من أخلاقه. وأصبح قائدا لفرقة من المماليك. وبعد موت الملك الصالح انتقل بيبرس إلى خدمة المعظم توران شاه، وشارك المماليك البحرية في اغتيال هذا الملك وتولية شجر الدر عرش مصر. وفي وقت لاحق خرج مع قطز لقتال التتار ثم قتل قطز وبايعه أمراء المماليك سلطانا. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٤٤٧؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ٩٤ - ٩٥؛ المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٢٠؛ وانظر أيضا: سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١، ص ٢٢ - ٢٣. هذا والمعروف أن البندقدار هو الذي

حيث مات بعد سبع سنوات²⁶، عاش البرنلي ثلاثة عشر عاما كان نشاطه خلالها مثار جدل بين الناس وخلاف بين المؤرخين.

المشهد السياسي إبان الفترة موضوع البحث

ظهر اسم الأمير شمس الدين آقوش البرنلي لأول مرة عندما سار مع عدد من أمراء البيت الأيوبي في ركاب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف الصغير للاستيلاء على مصر، وكان ذلك في منتصف رمضان من سنة ٦٤٨هـ / ١١ ديسمبر ١٢٥٠. وكانت شجر الدر قد بويغت في ١٠ صفر سنة ٦٤٨هـ / ١٤ مايو ١٢٥٠م، وتنازلت عن العرش اليوم الأخير من ربيع الآخر من نفس العام (٣٠ يوليو ١٢٥٠م) لزوجها المعز عز الدين أيبك، أي قبل تحرك الناصر صاحب حلب بأكثر من أربعة أشهر. فعندما كان الناصر في طريقه إلى مصر كان الحاكم الفعلي لمصر هو المعز أيبك، زوج شجر الدر. وكان أمراء المماليك البحرية قد اتفقوا على إقامة عز الدين أيبك²⁷ الجاشنكير²⁸ التركماني²⁹ الصالحي ملكا بعد اعتراض الخليفة العباسي على تولية شجر الدر. كما لجأ

يحمل جراوة البندق - حبات من طين أو رصاص - خلف السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين بندق، والآخِر دار، ومعناها ممسك، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨-٤٩٥.

²⁶ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

²⁷ "أيبك" اسم مركب من "أي" ومعناه القمر، و"بك" أي "أمير". والملاحظ أن أسماء معظم سلاطين المماليك وكذا أمراء سلطنتهم عبارة عن أسماء أشياء أو حيوانات في اللغات التركية والفارسية والتتارية. فبيبرس معناه "الأمير فهد"، وقلاوون معناه "البطة" وطوغان معناه "الصقر"، وبكتمر معناه "الأمير حديد". انظر: المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٤٦٨، حاشية رقم ٢.

²⁸ أصل المصطلح "أجاش نكر" وترسم متصلة "الجاشنكير" وهو المكلف بتذوق المأكولات والمشروبات قبل السلطان أو الأمي خوفا من أن يدس عليه فيه سم ونحوه. والمصطلح مكون من لفظين فارسيين: جاشنا ومعناه الذوق، وكير المتعاطي لذلك. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزء، القاهرة، ١٩١٣-١٩١٩م)، ج ٥، ص ٤٦٠.

²⁹ أولاد "التركمان" هم بنو رسول الذين استقلوا باليمن. وأصل نسبتهم إلى التركمان، مع أنهم عرب غساسنة. أتوا من بلاد التركمان إلى بغداد في خلافة الخليفة العباسي المستجد (٥٥٥-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م). للتفاصيل انظر: المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٨، حاشية ٣. انظر أيضا: أحمد مختار العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي - الإسكندرية ١٩٩٢م - ص ١١٥، ج ١.

المماليك إلى إقامة طفا من البيت الأيوبي هو موسى حفيد الملك الكامل ليكون ملكا على مصر مع عز الدين أيبك للتهدئة من سورة غضب الأيوبيين وطمأنتهم إلى استمرار الحكم الأيوبي في مصر. وقد ولقب هذا الملك الطفل "بالمك الأشرف"³⁰ أما الأمر والنهي فكانا في قبضة الملك المعز أيبك، أو على حد تعبير المقريري "إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير ذلك، وجميع الأمور بيد المعز أيبك"³¹ وتم ذلك في الثالث من جمادى الأولى من عام ٦٤٨هـ / ٣ أغسطس ١٢٥٠م³².

والواقع أن مجئ شمس الدين البرنلي إلى مصر في هذا الوقت جاء في إطار تحرك الملك الناصر الأيوبي بجيوشه للاستيلاء على مصر واستردادها من قبضة الأيوبيين³³. فقد تكتل ملوك بني أيوب في الشام للوقوف في وجه المماليك في مصر، بل ولغزوها واسترداد ملكها للأيوبيين. وكتبت فئة من المماليك في دمشق - التي كان يحكمها جمال الدين بن يغمور نائبا عن توران شاه - تدعى القيمرية إلى الناصر للحضور إلى دمشق لتسليمها له فاستجاب الناصر وتسلم دمشق في سهولة³⁴ ومنها خرج - كما سبق القول في منتصف رمضان ٦٤٨هـ / ١١ ديسمبر ١٢٥٠م للاستيلاء على مصر.

³⁰ حامد غنيم، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٣، ج ٣ - ص ١٣.

³¹ المقريري، السلوك ج ١ ص ٤٦٤.

³² المقريري، السلوك ج ١ ص ٤٦٤.

³³ فور وفاة الملك الصالح أيوب بادرت زوجته شجر الدر باستدعاء ابنه توران شاه من حصن كيفا لاعتلاء السلطنة بعد أبيه، غير أن توتر العلاقات بين توران شاه والمماليك البحرية ورغبته في التخلص منهم انتهى بقتلهم إياه. وإذ لم يجد قتلة توران شاه من المماليك بينهم من يصلح للسلطنة، أجمعوا على تولية شجر الدر ذلك المنصب، ولقد أجمع المؤرخون على أن شجر الدر كانت "خيرة، دينة، رئيسة عظيمة في النفوس". وحيث أن العادة قد جرت على أن يكون لسلطان مصر منذ أيام صلاح الدين هيمنة على بقية الملوك والأمراء في بلاد الشام، فقد بادرت شجر الدر بإرسال الخطيب أصيل الدين محمد لاستحلاف أمراء الشام على الولاء للسلطنة الجديدة ولكن بني أيوب كانوا يرون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام بوصفهم سلالة صلاح الدين فاشتعلت نار الثورة في الشام ضد سلطنة المماليك الوليدة في مصر وامتنعوا عن الحلف لها. انظر: العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٠٥؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٢٠١-٢٠٢ و ٢٠٤.

³⁴ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٢٠٥.

غير أن ما جرى في مصر في سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م من أحداث جسام لا يمثل إلا جانباً واحداً من اللوحة المتعددة الجوانب التي رسمتها يد القدر للمشرق الإسلامي في ذلك العصر. ولعلنا لا نبالغ إذا اعتبرنا ما جرى في مصر في ذلك العام لآخر ملوك بني أيوب بها وهو توران شاه، إرهاباً لما سيكون من شأن باقي ملوك هذه الأسرة التي كان نجمها يسير إلى زوال.

ولا يكتمل الحديث عن الدور الذي قام به الأمير شمس الدين أقوش البرنلي الفترة من سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م إلى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣م بدون الحديث عن القوى السياسية المؤثرة في الشرق الإسلامي في تلك الفترة. وتمثلت هذه القوى في أمراء بني أيوب الذين تقاسموا مملكة صلاح الدين الأيوبي بعد وفاته في ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م، وظلوا يحكمون بعض بلدان المنطقة حتى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م، والمغول، والصليبيين.

ففي مصر، كان الأشرف موسى الأيوبي (٦٤٨-٦٥٠هـ / ١٢٥٠-١٢٥٢م) يحكم البلاد إسمياً وعمره ست سنوات، بينما كان الملك المعز أيك، زوج شجر الدر (٦٤٨-٦٥٥ هـ / ١٢٥٠-١٢٥٧م)، يقوم بتدبير أمور الدولة³⁵، انظر: المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٤٦٤. وفي حلب كان الناصر صلاح الدين يوسف هو آخر الملوك الأيوبيين الذين حكموا حلب وكان يحكم أيضاً دمشق وبعلبك. وفي حمص كان الأشرف موسى الثاني بن إبراهيم (٦٤٣-٦٦١ هـ / ١٢٤٥-١٢٦٢م) هو آخر الأيوبيين الذين حكموا المدينة. وفي الكرك كان المغيث فخر الدين عمر بن العادل (٦٣٧-٦٦١ هـ / ١٢٣٩-١٢٦٣م) آخر من حكم هذه المدينة من بني أيوب. وفي ديار بكر (ميفارقين وجبل سنجار) كان الملك الكامل الثاني ناصر الدين (٦٤٢-٦٥٨ هـ / ١٢٤٤-١٢٦٠م) هو آخر من حكم المنطقة من سلالة صلاح الدين. وفي حماة كان المنصور الثاني محمد (٦٤٢-٦٨٣ هـ / ١٢٤٤-١٢٨٤م) يمثل استثناء لهذه القاعدة، فتسلم حكم المدينة

³⁵ المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٤٦٤.

من بعده أيوبي آخر استمر في الحكم من ٦٨٣ - ٦٩٨ هـ / ١٢٨٤ - ١٢٩٨ م، هو المظفر الثالث محمود³⁶.

وأما المغول الذين كان نجمهم آخذاً في الصعود مع تحركهم من آسيا غرباً باتجاه أراضي الخلافة العباسية، فقد شكل ظهورهم على مسرح الأحداث منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي تهديداً أثبتت الأيام خطورته على أحوال العالم الإسلامي في شرق البحر المتوسط. وكان اجتياحهم لكل ما صادفهم من بلدان في زحفهم غرباً³⁷ سبباً في بث الرعب في قلوب آخر أمراء البيت الأيوبي في الشرق فمالأهم من هؤلاء الأمراء من مالأهم وفر أمامهم من فر.

وفيما يتعلق بالصلبيين، الذين كانوا قد استقروا في بعض مدن الشام منذ الحملات الصليبية الأولى، فقد صادف عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وجود عدد من الملوك والأمراء الصليبيين الضعفاء الذين كانوا يفتقرون إلى زعامة قوية والذين استمرت الحروب بينهم على نحو أضعف من تأثير هذه الإمارات على مجرى الأحداث في الشرق الإسلامي³⁸

³⁶ عن حكم ملوك الأيوبيين في مصر والشام انظر: كليفورد بوزورث، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين على اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، الكويت ١٩٩٤، ص ٩٤-٩٦.

³⁷ كان جنكيز خان (٦٠٣-٦٢٤ هـ/١٢٠٦-١٢٢٧ م) أول خانات المغول الكبار في منغوليا، فقد بايعه شيوخ رؤساء المغول في ٦٠٣ هـ/١٢٠٦ م) رئيساً أعلى لجميع الأقوام المغولية. وكانت واقعة "أوترار" في سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م هي السبب الذي عجل بغزو المغول للعالم الإسلامي. فقد قتل الوالي الخوارزمي في أوترار رسل جنكيز خان إلى الخوارزمشاه وذبح قافلة كاملة من التجار المسلمين كانوا برفقة الرسل. فقام جنكيز خان في ٦١٦-٦١٧ هـ / ١٢١٩-١٢٢٠ م بغزو بلاد ما وراء النهر، وأرسل ابنه تولوي على رأس حملة إلى خراسان لتعقب جلال الدين منكبرتي، آخر الخوارزمشاهات (٦١٧-٦٢٨ هـ/١٢٢٠-١٢٣١ م). وواصل ابنا جنكيز خان الأخران، جوشي، وجغتاي، تقدمهما في الحوض الأدنى لنهر سيحون وإقليم خوارزم حيث دمرا الموطن الأصلي للشاهات. انظر: كليفورد بوزورث، الأسرات الحاكمة، ص ١٩٩-٢٠٠. وبعد وفاة جنكيز خان واصل خلفاؤه زحفهم في البلاد الإسلامية. انظر: فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠، الجزء الأول، ص ١٧٩.

³⁸ في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م، كان هيو الأول لوزجانان ملكاً لمملكة بيت المقدس (١٢٤٦-١٢٥٣ م)، وبوهمند الخامس أميراً لأنطاكية وكونتا على طرابلس (١٢٣٣-١٢٥١ م)، ويوحنا الثاني إيلين سيديا على

حتى مجيء لويس التاسع بحملته الصليبية السابعة في سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م³⁹ التي هزمت على يد المماليك في مصر⁴⁰

غير أن المشرق الإسلامي لم يقدر له أن يجني ثمار الانتصار على الصليبيين، رغم الدور الحاسم الذي لعبه هذا الانتصار في درء خطر الغزو الأوروبي للشرق الإسلامي، إذ أن الفضل في هذا الانتصار إنما يعود إلى شجر الدر، أول من تسلطن من المماليك البحرية بمصر. وكان ظهور قوة المماليك على هذا النحو سببا في إثارة غضب آخر خلفاء الأيوبيين الذين كانوا يحكمون معظم بلدان المنطقة، وخوفهم من زوال سلطانهم في مصر، فخرج الناصر صاحب حلب ودمشق قاصدا الاستيلاء على مصر كما سبق القول لاسترداد ملك الأيوبيين. ولكن هزيمته أمام المعز أيبك في عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م رجحت كفة المماليك الذين شرعوا في توطيد أركان دولتهم الوليدة بعد القضاء على بعض الثورات الداخلية والحركات الانفصالية الخارجية التي صاحبت قيام هذه الدولة في سنواتها الأولى.

وفي مقابل غياب الدور الأيوبي في مواجهة الخطر المغولي الداهم، برز دور المماليك البحرية في مصر⁴¹، وإذا بسيف الدين قطز، ومن معه من المماليك ومن انضموا إليه - وكان في عددهم شمس الدين البرنلي - يحول انتصارات المغول الكاسحة إلى هزيمة ساحقة في عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠م أوقفت تقدمهم في الشرق الإسلامي تماما وأرست دعائم الدولة المملوكية.

إقطاع بيروت (١٢٤٧-١٢٦٤م) وكونتا على يافا (١٢٤٧-١٢٦٦م)، وجوليان سيديا على إقطاع صيدا (١٢٤٧-١٢٦٠م)، وفيليب موننفورت سيديا على إقطاع صور وتبنين (١٢٤٠-١٢٧٠م)، ويوحنا أليمان سيديا على إقطاع قيسارية (١٢٤٩-١٢٦٤م). عن الملوك والأمراء الصليبيين في مدن الشام في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م، انظر ستيفن رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، الطبعة الثالثة، الجزء الثالث، ١٩٩٣، ص ٨٤١-٨٤٦.

³⁹ انظر سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ١٣٣-١٣٨.

⁴⁰ عن تفاصيل هذه الحملة انظر: ستيفن رنسيان، مرجع سابق - ص ٤٥٣ - ٤٧٢.

⁴¹ حامد غنيم، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٩.

ومجمل القول أن المشهد السياسي والعسكري في الشرق الإسلامي في عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م كان أشبه بلوحة من الفسيفساء تضم عددا كبيرا من الممالك الأيوبية المتناحرة، وعددا آخر من الإمارات والإقطاعات الصليبية المتصارعة، وملك صليبي كبير مني بهزيمة كبيرة أمام مماليك مصر ووقع في أسرهم، وسلطنة مملوكية وليدة في مصر، وخطر مغولي قادم من الشرق ليبتلع المنطقة. وكان بزوغ نجم دولة المماليك في مصر عاملا حاسما في توجيه دفة الأحداث في المنطقة في السنوات التالية. وفي هذه الظروف برز اسم الأمير شمس الدين بن عبد الله آقوش العزيزي البرنلي عندما خرج مع السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف قاصدا استرداد مصر من المماليك البحرية وإعادتها إلى حظيرة الدولة الأيوبية، بعد أن استولى على دمشق في إطار تكتل بني ملوك أيوب في الشام للوقوف في وجه المماليك في مصر، بل لغزو مصر ذاتها واسترداد ملكها للأيوبيين، وذلك احتجاجا على تولي شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر بعد وفاة هذا الأخير. وخرج المعز أيوب إلى الصالحية⁴² لقتال الناصر الذي وصل على رأس عساكره إلى كُراع⁴³، وهي قرية من العباسية⁴⁴. واندلع القتال بين بقايا البيت الأيوبي والمماليك البحرية "فانكسر الملك الناصر، وخامر آقوش البرنلي هذا وجماعة من

⁴² المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٤٦٧.

⁴³ تقع "كُراع" بين العباسية والسدير قريبا من الخشبي في الرمل، ويعرف الخشبي اليوم بالسعيدية، فيما بين بلبس والصالحية، المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٤٦٧ حاشية ٢ و ٣. وانظر أيضا: المكين جرجس: أخبار الأيوبيين - مكتبة الثقافة الدينية د. ت. ص ٤٠؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤، ج ١، ص ٤٩.

⁴⁴ العباسية هي أول قرية يلقاها القادم من الشام إلى مصر بمركز الزقازيق بالشرقية. وسميت بهذا الاسم نسبة إلى "العباسية" بنت احمد بن طولون، وكانت قد خرجت على قطر الندى بنت أخيها لما تزوجت من الخليفة المعتقد بالله العباسي، وهناك، في ذلك المكان، ضربت الخيام قبل مسير قطر الندى إلى بغداد، فسميت القرية باسم العباسية، خاصة وأنها أقامت في خيمة في نفس المكان. انظر: أبو المحاسن، النجوم، ج ٨، ص ١٤١، حاشية ١؛ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٤٦٧. وعن تقسيمات الجيشين في تلك المعركة انظر: المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٣٧٤ - ٣٧٥. انظر أيضا: أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ٨.

العزيزية⁴⁵. وفروا بأطلابهم⁴⁶ إلى الملك المعز والبحرية⁴⁷ وكان ذلك في العاشر من ذي القعدة سنة ٦٤٨ هـ / ٢ فبراير ١٢٥١م. وأورد النويري أن السبب في انضمام الأمير شمس الدين أقوش البرنلي والعزيزية إلى جيش المعز هو أن سلطانهم الملك الناصر "أضافهم يوم الحرب إلى طلب الأمير شمس الدين لؤلؤ - أتاكه - فعز ذلك عليهم"⁴⁸. ودبت الغيرة في نفوسهم، فقد كانت الغيرة من السمات الأساسية في شخصية المماليك. أما المقريري، فقد أرجع السبب في انضمام العزيزية إلى المعز أيبك إلى علة الجنسية لكونهم أتراكا كمماليك المعز، ولكراحتهم في الأمير شمس الدين لؤلؤ مدير المملكة⁴⁹. وعقب تلك الهزيمة، عاد الناصر يوسف مع البقية من جيشه إلى بلاد الشام⁵⁰

وهكذا انتقل ولأى شمس الدين أقوش البرنلي، على رأس جماعة العزيزية من الأيوبيين في الشام إلى المماليك في مصر. وقد أوضح المقريري بجلاء أن الفضل في انتصار المماليك في معركة العباسة على الناصر يوسف يعود في الأساس إلى فارس الدين أقطاي

⁴⁵ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥. وقد انفرد أبو المحاسن دون غيره من المصادر بذكر دور أقوش البرنلي في معركة العباسة.

⁴⁶ الأطلاب مفردا "طلب" وهي وحدة عسكرية صغيرة قد تصل أربعمئة جندي، يرأسها أمير. انظر: المقريري، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣م، ج ١، ص ١٣٨؛ ابن إياس، ج ٣، ص ٢٤ - ٢٥.

⁴⁷ المقريري، السلوك، ج ١ ص ٤٦٨؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥؛ ابن الوردي، تنمة المختصر في أخبار البشر - ويعرف بتاريخ ابن الوردي - ٢ ج، القاهرة، ١٢٥٨ هـ / ١٨٦٨م، ج ٢، ص ١٨٠ - ١٨١. و"العزيزية" طائفة من المماليك تنسب إلى السلطان الملك العزيز محمد بن غازي صاحب حلب. انظر: أبو المحاسن، النجوم، ج ٦، ص ٢٩٧؛ المقريري، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٧٤. العيني، ج ١، ص ٤٠، حاشية ٢. وعن خيانة العزيزية أورد العيني "...فمال من كان مع الناصر من مماليك أبيه العزيز إلى الترك الذين بمصر للجنسية" انظر: عقد الجمان، ج ١، ص ٤٠؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٨٤.

⁴⁸ النويري: ج ٢٩، ص ٤٢١.

⁴⁹ المقريري، السلوك، ج ١، ص ٤٦٧.

⁵⁰ المقريري، السلوك، ج ١، ص ٤٦٩؛ المكين جرجس، ص ٤٠؛ العيني ج ١، ص ٤٢ - ٣؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٨٥.

العزيزي⁵¹، أي المنتمي إلى العزيزية إذ أورد: "... ووقف الناصر في جمع من العزيزية وغيرهم تحت سناجقه وقد اطمأن، فخرج عليهم المعز - ومعه الفارس أقطاي - في ثلثمائة من البحرية، وقرب منه. فخامر عدة ممن كان مع الناصر عليه، ومالوا مع المعز والبحرية"⁵².

وعقب خيانة المماليك العزيزية للناصر يوسف توطدت العلاقة بين أقطاي وآقوش البرنلي⁵³. ووصلت هذه العلاقة إلى مداها حين ناصر آقوش والعزيزية أقطاي في ثورته على المعز أيبك ذلك أن انتصار أقطاي على الناصر يوسف زاد من قوة أقطاي ومكانته العسكرية ونفوذه في مواجهة السلطان المعز أيبك الذي بدأت تساوره المخاوف من ازدياد أتباع ونفوذ غريمه أقطاي فبدأ يحتاط لمواجهة مقبلة فأسس طائفة المماليك المعزية، وعين قطز المعزي⁵⁴ نائبا للسلطنة⁵⁵، كما أخلى جزيرة الروضة من المماليك البحرية المنصرين لغريمه أقطاي⁵⁶. وعزز مكانته بأن عزل شريكه الإسمي في الحكم الملك الأيوبي الطفل الأشرف موسى⁵⁷ وانفرد بالحكم.

⁵¹ فارس الدين أقطاي العزيزي، ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م، قائد المماليك البحرية التي كانت القوة الضاربة للجبش، ارتفع شأنه في أعقاب موقعة المنصورة، وقمعه عصيان الصعيد، وصار منافسا لعز الدين أيبك. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٢، ص ٥٠٢.

⁵² المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٨.

⁵³ في النويري أفضس الدرلي. انظر: النويري: ج ٢٩، ص ٤٢١.

⁵⁴ كان اسم "قطز" الأصلي هو "محمود بن ممدود"، وكان قريب "ابن أخت" السلطان جلال الدين خوارزمشاه، وقد أسر في حروب التتار، وبيع بدمشق للسلطان الملك المعز أيبك. انظر: المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤١٧، حاشية ٢. و"المماليك المعزية" نسبة إلى السلطان المعز أيبك التركماني. العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٣٨.

⁵⁵ نائب السلطنة ويسمى أيضا النائب الكافل وكافل الممالك الإسلامية، كان يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان، ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان. وهناك نواب كانوا أقل درجة بل وأشبه بالحكام المحليين، مهمته الاختصاص والاهتمام بالأمر المتعلقة بحدود نيابته. للتفاصيل انظر: الفلقشندي، صبح الأعشى ج ٤، ص ١٦.

⁵⁶ وصل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية إلى قمة المجد بعد تمكنه من قمع ثورة الأعراب ضد أيبك حتى كاد أن يصبح ملكا متوجا. فتوجس أيبك خيفة منه ومن المماليك البحرية خشداشيته. وبالفعل أخذ أقطاي يرنو علانية نحو عرش السلطنة. وتحقيقا لغايته تلك، تزوج بأميرة أيوبية هي ابنة

وفي ظل تلك المواجهة المكشوفة بين المعز وأقطاي، ناصر شمس الدين آقوش البرنلي وجماعة العزيزية الأمير أقطاي، ودبروا مؤامرة للقبض على المعز⁵⁸ والفتك به⁵⁹. إلا أن المعز علم بتلك المؤامرة، واستعد لقمعها⁶⁰، فانقض أتباعه بغتة على معسكر العزيزية في العباسة⁶¹ وتم القبض على بعضهم وهرب البعض الآخر. وكان آقوش البرنلي ممن هرب⁶². وأورد أبو المحاسن قصة هرب البرنلي تحت أحداث سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥م⁶³

وكانت هذه المؤامرة، والملابسات التي أحاطت بها، والنتائج التي أسفرت عنها هي حلقة في سلسلة الانقلابات والتحويلات التي شكلت سيرة حياة الأمير شمس الدين آقوش البرنلي. ولكن لماذا انحاز البرنلي إلى المعز أيبك في هذه الموقعة؟ إن هذا السؤال يفتح الباب أما احتمالات ثلاثة هي:

- أن آقوش انحاز إلى المعز أيبك لعدة النسب كما ذكر المقرئزي
- أنه انحاز إليه لأنه توسم النصر في جيش المماليك

الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة حتى تضفي عليه تلك الزيجة الشرعية، ولم يكتف بذلك، بل تأمر لقتل أيبك وطلب منه الإقامة مع عروسه - التي تجري في عروقها الدماء الملكية - لكونها من الأسرة الأيوبية - في قلعة الجبل. لذا صمم أيبك على قتله، فتم له ذلك يوم الأربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤م. للتفاصيل انظر: المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٤٨٣؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١١ - ١٢؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص ٣٤ - ٣٦.

⁵⁷ ابن الوردي ج ٢، ص ١٨٧.

⁵⁸ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٩٠.

⁵⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

⁶⁰ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٩٠.

⁶¹ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٩٠؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

⁶² والملاحظ أن أبا المحاسن انفرد دون غيره من المصادر الإسلامية بذكر أن آقوش كان من بين الفارين. فهو يقول في المنهل، ج ٣، ص ١٥: "...فكان آقوش البرنلي ممن هرب"، ثم يصفه في النجوم، ج ٧، ص ٣٤، بأنه كبيرهم (أي كبير الهاربين): "...فهربوا على حمية، وكبيرهم آقوش البرنلي".

⁶³ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ٣٤.

- أنه فعل ذلك لسبب آخر في دخيلة نفسه، كطموح شخصي إلى أن يكون له دور في دولة المماليك الوليدة، أو حتى طموح إلى الملك، وهو الذي كان من "أكابر" مماليك العزيز غياث الدين كما وصفه صاحب المنهل؟⁶⁴

إن الأحداث التي شهدتها أو شارك فيها البرنلي منذ هذه الموقعة بين المماليك والأيوبيين في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م وحتى اعتقال بيبرس له في ٦٦١ هـ / ١٢٦٢م، على النحو الذي سيتضح من ثنايا هذا البحث، ترجح كفة الاحتمال الثالث، فقد كان الطموح الشخصي والتطلع إلى التملك والسلطان هو المحرك الأول وراء جميع أعمال شمس الدين أقوش البرنلي في كل ما أتى من أفعال.

شارك أقوش البرنلي إذن في التآمر على المعز أبيك، وانكشفت المؤامرة، وفر هاربا مع من فروا. فإلى أين يتجه وهو مملوك هارب لا حول له ولا قوة إلا بسند من سلطان يدخل في رجاله وينضوي تحت لوائه؟ من الواضح أنه لم يكن أمامه إلا العودة إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب فعاد إليه⁶⁵ متناسيا خيانتة له في معركة العباسية. ولا تذكر المصادر شيئا عما دار بينه وبين الناصر من حديث، إن كان حديث قد دار بينهما فعلا ولكننا نعرف أنه ما كان من الناصر في هذه الظروف إلا أن ألقى القبض على أقوش واعتقله في قلعة عجلون⁶⁶.

ولكن هذا الاعتقال كان حلقة أخرى في سلسلة تقلب الولاء، أو هو في هذا المقام تقلب الزمن، التي تشكلت منها حياة أقوش البرنلي. وإذا كان تولي شجر الدر حكم مصر هو الشرارة التي أشعلت نار الفتنة بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، فكانت هذه الفتنة سببا في ظهور البرنلي على مسرح الأحداث، مناصرا للناصر ثم خائنا له فقد

⁶⁴ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٤.

⁶⁵ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

⁶⁶ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥. وكانت "عجلون" قلعة من جند الأردن، مبنية على جبل يعرف بجبل عوف، تشرف على الخور، بناها عز الدين أسامة بن منقذ سنة ٥٨٠هـ. وكان مكانها دير به راهب اسمه عجلون فسميت باسمه. انظر: الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٥ - ١٠٦، ٢٠٠.

اندلعت في الشرق الإسلامي آنئذ شرارة فتنة أخرى أكثر خطورة وأجل شأنًا كانت أيضا سببا في ظهور البرنلي كأمرير مقاتل مرة أخرى على مسرح الأحداث، ألا وهي ظهور التتار على مسرح التاريخ ونزوحهم غربا ووصولهم إلى أبواب بغداد. وكان وقع ذلك على المسلمين رهيبا، خاصة بعد أن تمكن هولاءكو من إسقاط بغداد دار الخلافة العباسية. وبينما كان التتار يستعدون لاجتياح بلاد الشام إذ بالناصر يسلك سلوكا يقترب من الخيانة للإسلام والمسلمين إن لم يكن الخيانة عينها. فقد حاول هذا السلطان الأيوبي المنحدر من صلب صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣ م) قاهر الصليبيين في حطين، أن ينتهز فرصة اجتياح التتار للمنطقة لتحقيق أطماعه لإعادة الحكم الأيوبي وبسط سيادته على مصر والشام.

ومن منطلق هذه السياسة التي تتسم بضيق الأفق، أوفد الناصر ابنه الملك العزيز إلى هولاءكو طالبا منه نجده⁶⁷ ليستولي على مصر من المماليك ويعيدها إلى حظيرة الدولة الأيوبية صاحبة الحق الشرعي فيها. إلا أن هولاءكو اشترط في رسالة حملها إلى الناصر ابنه الملك العزيز أن يدخل الناصر في طاعته فازداد انزعاج الناصر⁶⁸.

وعندما رأى الناصر تساقط بلدان الشام في يد التتار الواحدة تلو الأخرى، واقترب التتار من قلعة عجلون سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، أخرج سجينه البرنلي من حبس عجلون وأكرمه، أو بالأحرى اضطر إلى إخراجه وإكرامه ليستفيد من قدراته القتالية. "ودام عنده إلى أن انهزم الناصر من الملك المظفر قطز (٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م)⁶⁹ بقطيا"⁷⁰.

⁶⁷ المقريري، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤١٠ - ٤١١.

⁶⁸ المقريري، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤١٥ - ٤١٦.

⁶⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥. ومما يذكر أن قلعة عجلون استعصت على كتبغا نائب هولاءكو، إلا أن الناصر أصدر أوامره إلى حاميتها بتسليمها إلى المغول الذين قاموا بهدمها. (انظر: أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٠٤؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٠، ٢٠٣). أما "قطز" فينتهي إلى بيت الملك في خوارزم، فهو ابن أخت جلال الدين خوارزمشاه - كما سبق القول - وحين تمكن المغول من القضاء على الدولة الخوارزمية، كان قطز من بين الأسرى الذين حملوا إلى دمشق حيث بيع ببيع الرقيق فاشتراه السلطان أيبك التركماني. وكلمة قطز كلمة تركية تعني الكلب الشرس. للتفاصيل انظر: الكتبي: فوات الوفيات، جزءان، بولاق، ١٢٩٩ هـ، ج ٢، ص ١٣٢ - ١٣٣.

ويرجع المقريري سبب هزيمة الناصر إلى تخلي عديد من أمرائه وجنده عنه وانضمامهم إلى قطز⁷¹. ومرة أخرى كان شمس الدين آفوش البرنلي بين من تخلوا عن الناصر في ميدان القتال. وانفرد أبو المحاسن بذكر اسمه حيث قال: "دخل البرنلي مع العساكر المصرية إلى القاهرة"⁷². وهكذا خان البرنلي الناصر مرتين متتبعيتين في خلال عشر سنوات، مرة في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م في موقعة الصالحية، ومرة في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م في قطيا، ليثبت للتاريخ أنه رجل لا يسعى إلا إلى مصلحته، ولا يهمله إلا تحقيق طموحاته التي لا تنتهي.

وبالفعل، فقد سعى آفوش البرنلي إلى جني ثمار خيانتة، فسعى إلى الاتصال بالسلطان الملك المظفر سيف الدين قطز⁷³، وشاركه، مع المماليك العزيرية، في قتال التتار في معركة عين جالوت⁷⁴ (٦٥٨هـ/١٢٦٠م). وعقب انتصار المماليك على التتار في هذه المعركة، أحسن إليه الظافر قطز وعينه أميرا على غزة والبلاد الساحلية الشامية، ورتب معه جماعة من العزيرية⁷⁵ وأقطعهم إقطاعات هائلة⁷⁶. ولما تولى البرنلي هذه الأعمال

⁷⁰ قطيا: "أو قطية": قرية في طريق مصر الشام، في وسط الرمل المعروف بالجفار، قرب الفرما، بالقرب من ساحل البحر (وقد جعلت لأخذ الموجبات وحفظ الطرقات وأمرها مهم، ومنها يطالع بكل صادر ووارد) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٠١؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤ أجزاء، بيروت ١٩٦٨، ج ٧، ص ٢٣١.

⁷¹ المقريري، السلوك، ج ١، ص ٥١٣.

⁷² أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

⁷³ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٦.

⁷⁴ ورد اسم "عين جالوت" في معجم البلدان، وهي بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. ويرجع هذا الاسم إلى الأسطورة القائلة بأن داود قتل جالوت في هذا المكان، وقد سماها الصليبيون مدينة TUBANEA انظر: معجم البلدان، القاهرة، ١٩٠٦، ج ٦، ص ٢٥٤، وانظر أيضا: Ency of Islam, Art. Ayn Djalut, t. I, p. 810; Boyle, J. A. Cambridge History of Persia, Cambridge, 1968, t. V, pp.351 - 352.

⁷⁵ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٠٦؛ المقريري، السلوك، ج ١، ص ٥١٨؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٦؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٢ - ٢٠٣؛ ابن شداد، ص ٣٩، ح ١.

⁷⁶ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٦.

استقر تارة بنابلس وتارة ثانية ببيت حبرون⁷⁷. وهكذا تحقق أول طموحات آقوش البرنلي حين عين أميراً على غزة والساحل الشامي، واستمر بمنصبه إلى أن قتل الملك المظفر قطز⁷⁸.

الأمير شمس الدين آقوش البرنلي يسترد دمشق

عندما تسلطن الملك الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠م - ١٢٧٧م)، خرج عليه - إثر إعلانه سلطاناً - الأمير علم الدين سنجر الحلبي⁷⁹ سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م، احتجاجاً على مقتل قطز، الذي كان قد عينه من قبل نائباً على دمشق⁸⁰، فنادى بنفسه سلطاناً على دمشق وتلقب بالملك المجاهد، وخطب له يوم الجمعة، وركب بشعار السلطنة، وشرع في عمارة قلعة دمشق استعداداً لقتال جيش بيبرس⁸¹.

⁷⁷ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٣؛ أبو الفداء، المختصر ج ٣، ص ٢٠٧ و"بيت حبرون" اسم القرية التي بها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام، قرب بيت المقدس، وغلب عليها اسم الخليل. انظر: البغدادي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - تحقيق على محمد الجاوي - القاهرة ١٩٥٤، ج ٢، ص ٣٧٦.

⁷⁸ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٦؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٠٦. انظر أيضاً: Abou'L Fedā, in R.H.C., Hist. Or., T. I. p. 144.

⁷⁹ هو سنجر بن عبد الله الصيرفي، علم الدين (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢م) كان أتباعاً للملك المنصور في القاهرة، مما جعله أهم المنافسين لقطز الذي قام بتعيينه حاكماً لدمشق إيعاداً له، وإشباعاً لطموحه. وقد عارض بشدة تولي بيبرس السلطة. والمعروف أن سنجر ثار بدمشق في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م، وأنه دعا بالسلطنة لنفسه فيها، معتمداً على تحصينه لها وتعميره لسورها. فلما تخامر بيبرس مع أمراء دمشق ضده وحاصروه بالقلعة فر منها إلى بعلبك، فحاصره طيبرس الوزيري، حتى أخذه أسيراً، وبعث به إلى الديار المصرية، حيث ظل معتقلاً بها إلى أن أخرجه وأمره الملك الأشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠م. ولم يزل سنجر أميراً بمصر إلى أن توفي. راجع: أبو المحاسن، المنهل، ج ٦، ص ٧٦؛ المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٤٥؛ المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٢٢، سنة ٦٥٨ هـ. انظر أيضاً: عبد العزيز الخويطر: الملك الظاهر بيبرس - الطبعة الأولى، الرياض ١٩٧٩م - ص ٤١.

⁸⁰ المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥١٨. انظر أيضاً: سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٢٢٤.

⁸¹ المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٢٢؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٠٨؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٤؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١٠٤؛ النويري، ج ٣٠، ص ٣٨؛ ابن أبيك: الدرر الزكية في

وإزاء تلك الحركة الانفصالية التي كانت ستقتطع - في حال نجاحها - بلاد الشام من جسد سلطنة المماليك البحرية الوليدة، لجأ بيبرس أول الأمر إلى الطرق السلمية لإنهاء هذا العصيان، فأوفد رسله وكتبه لإقناع علم الدين سنجر - المتغلب على دمشق - بلزوم الطاعة حقناً لدماء المسلمين⁸² غير أن مساعيه لم تكلل بالنجاح، فلجأ إلى سياسة القمع، فطلب آقوش البرنلي - حسب رواية أبي المحاسن - وأغدق عليه⁸³، وكان مقطعا غزة والساحل الشامي من أيام المظفر قطز - كما سبق القول - فزاده بيبرس بيسان⁸⁴ وأنعم على مملوكه قجقار عدة نواحي⁸⁵ كما أغدق على جماعة من العزيرية والناصرية⁸⁶، وأمرهم بالتوجه مع العساكر المصرية لمحاصرة وقتال الأمير علم الدين سنجر الحلبي المتغلب على دمشق، ونجح البرنلي في إتمام المهمة الموكلة إليه، إذ استعاد دمشق من مغتصبها سنجر الحلبي، الذي أحضر إلى القاهرة حيث سجنه بيبرس في القلعة، وكان ذلك في السادس عشر من صفر سنة ٦٥٩هـ/يناير ١٢٦١م وظل بها هو والعزيرية⁸⁷ إلى أن عين بيبرس أستاذه الأمير علاء الدين إيدكين البندقاري الصالحي نائبا عليه⁸⁸.

أخبار الدولة التركية - تحقيق أولرخ هارمان - القاهرة ١٩٧١م - ص ٦٣ - ٦٤؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة - الرياض د.ت. - ص ٧٧؛ العيني، ج ١، ص ٢٩٠؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، ج ٢، ص ٩١ - ٩٣؛ ابن إياس، ج ١، ص ٣١١ - ٣١٢.

⁸² وقد أورد المقرئزي: "فكتب الملك الظاهر إليه يعنفه ويقبح فعله، فغالطه في الجواب"، المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٢٢.

⁸³ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٦.

⁸⁴ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق الدكتور عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص ٩٧.

⁸⁵ النويري، ج ٣٠، ص ٤٤. وفي ابن عبد الظاهر ص ٩٧: "وأعطى مملوكه قجقار جماعة". ويبدو أن المحقق عبد العزيز الخويطر أسقط كلمتين من المخطوط.

⁸⁶ الناصرية هم مماليك الناصر يوسف صاحب حلب (٦٣٤ - ٦٥٨هـ / ١٢٣٧ - ١٢٦٠م). انظر:

جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٦٩، ص ٣٨.

⁸⁷ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧.

⁸⁸ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٠؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ العيني، ج ١، ص ٢٩١، وعن علاء الدين البندقاري وأستاذه لبيبرس أورد صاحب النجوم الزاهرة: "أخذ بيبرس من بلاده [أي

وإذا كان خروج البرنلي مع قطز لمحاربة التتار في عين جالوت يمثل الفرصة الأولى التي أتاحت لهذا المتطلع إلى الملك لتحقيق طموحاته، فإن تكليف بيبرس له باسترداد دمشق من علم الدين سنجر كان بمثابة الفرصة الثانية، بل الفرصة الذهبية التي فتحت الباب على مصراعيه أمام هذا المملوك الطموح لزيادة نفوذه والمضي قدما في تحقيق أحلامه. إذ انه بعد أن نجح في استعادة دمشق من سنجر الحلبي. عاد إلى نزوعه الفطري إلى الانقلاب على سيده، كما فعل عندما انقلب على الناصر وانضم إلى المعز، ثم عندما انقلب على المعز وشارك في التآمر عليه، ثم عندما انقلب على الناصر وانضم إلى قطز. والملاحظ أنه كان في جميع هذه الحالات ينقلب على سيده لمناصرة خصمه الذي يتوسم فيه الانتصار. أما ما كان من أمره مع بيبرس، فقد شذ عن هذه القاعدة. فهو لم ينقلب على بيبرس ليناصر خصما لبيبرس، بل ليجعل من نفسه هو خصما لبيبرس، فيتمرد عليه ويدعو الآخرين لمناصرتة في تمرد. إذ أنه بعد استقرار الأمور في دمشق، وتعيين علاء الدين البندقداري نائبا عليها، أمر السلطان بإلقاء القبض على بهاء الدين بغدي الأشرفي⁸⁹ "لأسباب أوجبت الإمساك به"⁹⁰. فارتاب آقوش البرنلي من إلقاء القبض عليه هو أيضا، بل يذكر أيبك الداوداري أنه "تحقق أن يقبض عليه معه"⁹¹ فخرج من دمشق هارب⁹² في

بلاد القفجاق] وأبيع بدمشق للعماد الصانع، ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيديكن الصالحي البندقداري وبه سمي البندقداري، أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ٩٤.

⁸⁹ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٠؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ العيني، ج ١، ص ٢٩١؛

ابن أيبك، الدرّة الزكيّة، ص ٧٢؛ ابن عبد الظاهر، ص ٩٧.

⁹⁰ ابن عبد الظاهر، ص ٩٧. والملاحظ أن كافة المصادر الإسلامية لم تذكر أسباب إلقاء القبض على

بهاء الدين بغدي. وانفرد ابن عبد الظاهر بذكر "لأسباب مجهولة".

⁹¹ ابن أيبك، الدرّة الزكيّة، ص ٧٢.

⁹² أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٠؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣،

ص ١٧. انظر أيضا Abou'l Feda, p. 146

غسق الليل⁹³ وبصحبته جماعة من المماليك الأشرفية⁹⁴ والعزيفية والناصرية⁹⁵، ونزلوا بالمرج⁹⁶.

والواقع أن موقف شمس الدين البرنلي من دمشق يطرح عددا من التساؤلات لا يمكن تجاهلها في هذه الحلقة من حلقات حياة هذا الثائر الطامح دوما إلى التملك. ولعل أهم هذه التساؤلات: هل كان البرنلي مخلصا لبيبرس حقا عندما سلم دمشق - بعد أن استردها بالقوة المسلحة من علم الدين سنجر - لعلاء الدين إيدكين البندقداري الذي عينه ببيبرس نائبا عليها؟ ولماذا لم يحاول التغلب عليها أو تملكها كما حاول أكثر من مرة في وقت لاحق التغلب على حلب؟ هل كان قانعا بما أقطعه قطز من قبل في غزة والساحل الشامي ولم يكن يتطلع إلى المزيد، ثم ازداد قناعة بعد أن أنعم عليه ببيبرس ببيسان وعلى مملوكه قجقار بعدة نواح لإغرائه بالخروج مع العساكر المصرية لمقاتلة علم الدين سنجر؟ هل كان في ذلك مطيعا لأوامر ببيبرس بالخروج لمقاتلة سنجر فحسب؟ وبعبارة أخرى ألم يكن له مطمع في التغلب على دمشق قبل ذلك الوقت؟ وهل كان فعلا يضع عينه على حلب وحدها وليس سواها؟ ولماذا؟

أما إخلاصه لبيبرس، فإن المتابع لسيرة حياة هذا الرجل يدرك أن الإخلاص لسيد أو صاحب فضل كان آخر ما يمكن أن يخطر ببال شمس الدين آقوش البرنلي منذ ظهوره على مسرح الأحداث في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م حتى انتهاء حياته في سجن ببيبرس في

⁹³ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٠؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ العيني، ج ١، ص ٢٩٢.

انظر أيضا: Abou'l Feda, p.146

⁹⁴ انفرد ابن عبد الظاهر دون غيره من المصادر الإسلامية بذكر انضمام المماليك الأشرفية إلى آقوش البرنلي. انظر: الروض الزاهر، ص ٩٧.

⁹⁵ ابن عبد الظاهر، ص ٩٧؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٠؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٤.

⁹⁶ العيني، ج ١، ص ٢٩٢؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٤؛ ابن عبد الظاهر ٩٧؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٠؛ ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٠٥.

سنة ٣٥٦٦٨ هـ / ١٢٧٠م. وأما القناعة، فصفة لم تعرف طريقها إلى قلبه، شاهدنا على ذلك تعلقه بين السادة ونقل ولاته من سيد لآخر رغبة في المزيد. فلا يبقى بعد ذلك إلا دافع لم يفصح عنه البرنلي ولم تشر إليه المصادر كان يدفعه إلى الزهد في دمشق والرغبة في حلب.

ولقد كانت حلب - مفتاح بلاد الشام - دائما محور اهتمام الأمير شمس الدين آقوش البرنلي. وليس ذلك بمستغرب من رجل أمضى أكثر من ثلاثين سنة من حياته في هذه المدينة حيث نشأ في خدمة ملكها الأيوبي العزيز غياث الدين بن محمد الذي تولى الحكم في ٦١٣ هـ / ١٢١٦م حتى أصبح من أكابر مماليكه كما سبق القول، ثم انتقل إلى خدمة ابنه السلطان الناصر يوسف حتى خرج معه للاستيلاء على مصر في ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م.

وإذا لم يكن لموقع حلب الجغرافي في شمال بلاد الشام على مقربة من ملك سلاجقة الروم⁹⁷ أو مركزها الاستراتيجي أو أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية دخل في تسلط فكرة التغلب عليها وتملكها على تفكير البرنلي، فإن طول مكثه بها قد جعله بلا شك خبيرا بها وبكل ما يجري فيها ولها كأنه من أهلها، وأهل مكة - كما يقولون - أعلم بشعابها. وربما تولد في نفسه، لطول مقامه بحلب شعور بالانتماء إليها وبأنه أحق بها بعد زوال ملك الأيوبيين عنها - على الرغم من غرابة فكرة الانتماء عند الحديث عن هذا الرجل وعدم اتساقها مع طبيعته شخصيته المتمردة الطموح - فنراه يخرج منها ويعود إليها المرة بعد المرة، ولربما خرج منها بإرادته حيناً، كخروجه في ركاب الناصر للاستيلاء على مصر في ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م⁹⁸، أو لمناصرة الملك الصالح صاحب الموصل في مواجهة التتار⁹⁹، كما سنفصل القول في موضع لاحق من هذا البحث، ومطرودا حيناً، كخروجه منها أمام جيوش بيبيرس تحت قيادة جمال الدين آقوش المحمدي الصالحي سنة

⁹⁷ الملاحظ دائما على تحركات البرنلي أنه كان يتجه إلى شمال الشام حيث كانت تقوم مملكة سلاجقة الروم. وربما كانت لدى البرنلي دوافع معينة تدفعه إلى الاقتراب من هذه المملكة.

⁹⁸ انظر ص ٧ من هذا البحث.

⁹⁹ انظر ص ٣٥ من هذا البحث.

٦٥٩ هـ / ١٢٦١م¹⁰⁰ ، ثم أمام جيش الأمير بلبان الرشيد الذي أرسله بيبرس أيضا في العام نفسه¹⁰¹. غير أنه في كل مرة يعود إليها إنما كان يعود متغلبا عليها ساعيا إلى تملكها.

الأمير شمس الدين أقوش البرنلي متغلبا على حلب

خرج البرنلي إذن من دمشق هاربا في غسق الليل وبصحبته عدد من المماليك الأشرفية والعزيفية والناصرية عندما تحقق من القبض عليه. وخشي علاء الدين البندقداري أن يعم العصيان ربوع بلاد الشام، فحاول إنهاء تمرد البرنلي، وأوفد مبعوثيه إليه ليطيب قلبه ويحلف له¹⁰² ولكن مساعي نائب دمشق باءت بالفشل. وسار البرنلي إلى حمص حيث طلب من الأشرف موسى الانضمام إلى ثورته، فلم يوافق، فتوجه إلى حماة، وأرسل وفدا إلى الملك المنصور صاحبها يخبره بانضمام كل أفراد البيت الأيوبي إليه، وبأنه لم يبق سواه، وحاول أن يقنعه بالمطالبة بالملك، وبأنه وأتباعه سيساعدونه في تحقيق ذلك، كما عشمه بتملكه البلاد. فرد المنصور ردا قبيحا، فاغتاظ البرنلي وقام بإحراق زرع بيدر العشر. ثم سار إلى شيزر¹⁰³، ثم إلى جهة حلب حيث وضع يده على بعض مؤنها¹⁰⁴. فأدرك بيبرس مدى خطر عصيان البرنلي، وقرر ضرورة قمعه ليتفرغ للتصدي للخطر الكاسح المتمثل في هجمات التتار المتوقعة. ومما يذكر أن السلطان الظاهر بيبرس كان قد

¹⁰⁰ أقوش بن عبد الله المحمدي الصالحي النجمي، كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب ومن أعيان الملك الظاهر بيبرس، وكان مرصودا عند الملك لكل أمر مهم. وهو أحد القادة سيرهم السلطان بيبرس للقضاء على عصيان البرنلي. انظر: أبو المحاسن، المنهل: ج ٣، ص ٢٣.

¹⁰¹ ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزء، القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ، ج ١٣، ص ٢٣٣؛ العيني، ج ١، ص ٣١١؛ النويري: ج ٣٠، ص ٤٤.

¹⁰² العيني، ج ١ ص ٢٩٢؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٠ - ٢٢١؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥ اليونيني، ج ٢، ص ١٢١.

¹⁰³ قلعة تشتمل علي كورة بالشام، قرب المعرة، بينها وبين حماة مسيرة يوم، في وسطها نهر الأردن، عليه قنطرة في وسط المدينة أوله من جبل لبنان تعد في كورة حمص وهي قديمة، ياقوت، ج ٣، ص ٣٨٣.

¹⁰⁴ العيني، ج ١، ص ٢٩٢؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ ابن عبد الظاهر: ص ٩٧.

سبق له أن أصدر عفوا عن الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي ثار من قبل في دمشق¹⁰⁵ وقلده نيابة حلب، "وجهاز معه أمراء لكل منهم وظيفة"¹⁰⁶. فسار الأمير علم الدين سنجر من القاهرة "كما تسافر الملوك" ووصل إلى حلب في يوم السبت ٣ شعبان سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م. فحضر إليه جماعة من العزيزية والناصرية طالبين الأمان فرفض مطلبهم¹⁰⁷. وهكذا لم يتبق إلا المواجهة العسكرية بين علم الدين سنجر والبرنلي. وبالفعل جرد علم الدين سنجر جماعة من العسكر لقتال البرنلي ومن معه من العزيزية والناصرية، فكانت الغلبة للبرنلي وأنصاره¹⁰⁸.

ويلاحظ في هذا الصدد أن المصادر لا تذكر شيئاً عن ظروف أو أسباب عفو بيبرس عن علم الدين سنجر بعد أن قبض عليه علاء الدين البندقداري إثر تمردده على بيبرس وأحضره إلى القاهرة حيث سجن في القلعة¹⁰⁹. ويرى الباحث أن إفراج بيبرس عن علم الدين سنجر على هذا النحو (بعد نحو ستة أشهر، حيث اعتقل في السادس عشر من صفر سنة ٦٥٩هـ / يناير ١٢٦١م، وأفرج عنه وسار إلى حلب لمقاتلة البرنلي في الثالث من شعبان من العام نفسه) وتقليده نيابة حلب، وتكليفه بقمع حركة البرنلي الاستقلالية في حلب، إنما يدل على أن بيبرس كان يثق في سنجر رغم هزيمته أمام البرنلي من قبل. والواقع أن هذا التصرف من جانب بيبرس إنما يمثل ظاهرة عامة في حكم المماليك، حيث المصلحة هي الرائد في كل ما يعرض للحاكم المملوكي من أحداث. فقد رأينا من قبل كيف سجن الناصر الأيوبي شمس الدين البرنلي حين عاد إليه هاربا من المعز أيبك، ثم كيف أفرج عنه للاستعانة به في مواجهة خطر المغول ومحاربة قطز، حيث انقلب عليه البرنلي من جديد وانحاز إلى قطز¹¹⁰. فالإفراج عن السجين قد يكون الدافع إليه

¹⁰⁵ النويري، ج ٣٠، ص ٤٤.

¹⁰⁶ المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٥١. انظر أيضا: النويري، ج ٣٠، ص ٤٤.

¹⁰⁷ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٤٥٢؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٤؛ ابن عبد الظاهر: ١١٣. ونستخلص من قول المقرئزي "كما تسافر الملوك" مدى غرور علم الدين سنجر وضخامة حجمه السياسي الذي يذكرنا بفارس الدين أقطاي أثناء سلطنة المعز أيبك.

¹⁰⁸ النويري، ج ٣٠، ص ٤؛ ابن عبد الظاهر، ص ١١٣.

¹⁰⁹ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٢٦.

¹¹⁰ انظر ص ١٧ من هذا البحث؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

الاستفادة من القدرات القتالية للسجين كما هو الحال بالنسبة للناصر مع البرنلي، أو الثقة في ولاءه ، كما يرجح الباحث بالنسبة لبييرس مع علم الدين سنجر.

أمر آخر يستلقت النظر في موقف علم الدين سنجر من جماعة العزيزية والناصرية الذين حضروا إليه طالبين الأمان فرفض طلبهم. ورغم أن المصادر لا تشير إلى مصير هؤلاء الذين طلبوا الأمان وما إذا كانوا قد عادوا إلى البرنلي أم اتخذوا وجهة أخرى، فإن الموقف في حد ذاته حافل بالدلالات التاريخية التي يمكن استقراؤها من الصورة العامة لهذه الواقعة. فنحن أولاً أمام ظاهرة مألوفة من ظواهر العصر المملوكي، حيث يمون انتماء لفرد هو انتماءه إلى نفسه، وإلى أستاذه، وإلى خشداشه، وحيث الدافع الوحيد وراء جميع تصرفاته هو مصلحته الشخصية الفردية، لا مصلحة الجماعة التي ينسب إليها ويحمل اسمها. فهاهم المماليك العزيزية يجرعون البرنلي نفس الكأس التي جرعها للملك الناصر يوسف من قبل حين تخلى عنه وانضم إلى جيش المعز أيبك، فيتخلون عنه ويتوجهون إلى غريمه علم الدين سنجر يطلبون عنده الأمان. والأيام دول.

وينطوي هذا الحدث أيضاً على حقيقة يمكن للمرء أن يستشفها من قراءة شخصيات أبطال الحدث. فلم يكن البرنلي - في رأي الباحث، واستناداً أيضاً إلى عدم ورود أي إشارة إلى ذلك في المصادر - ضمن مماليك العزيزية الذين طلبوا الأمان من علم الدين سنجر. فلا شخصية البرنلي الطموح، الوثائق من نفسه تسمح بمثل هذا الافتراض، ولا رفض سنجر منح هؤلاء اللاجئين إليه الأمان يشير إلى وجود البرنلي بينهم، وإلا كان ذلك اللجوء يمثل نصراً مقدماً على طبق من ذهب لسنجر، فما الذي يحمله على رفض استسلام عدو هو أدري الناس بقدراته القتالية الفذة؟؟ وما الداعي إلى مواصلة التقدم لقتاله لو أنه أتاه طالبا الأمان؟

وبسبب تلك الهزيمة التي مني بها علم الدين سنجر، عزله السلطان بييرس فغادر حلب وعاد إلى دمشق، فتغلب البرنلي على حلب¹¹¹ التي كان بها آنذاك الأمير فخر الدين أيدير

¹¹¹ النويري، ج ٣٠، ص ٤٤؛ ابن عبد الظاهر، ص ١١٣.

الحلي الحمصي¹¹²، إذ جهزه الملك الظاهر بيبرس على رأس العساكر المصرية للدفاع عن البلاد الحلبية في مواجهة الغزو التتاري، وكان ذلك في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م¹¹³. وباقتراب البرنلي ومناصريه من المماليك العزيرية والناصرية من حلب، ظن فخر الدين الحمصي أنه جاء نجدة له¹¹⁴، بينما شعر البرنلي أن الفرصة وافته لبسط سيادته على حلب، فدخلها وتغلب عليها¹¹⁵ وأقام بها¹¹⁶. وفي محاولة مأكرة، تكشف عن جانب من شخصية البرنلي، لإزاحة فخر الدين الحمصي من طريقه، وإخراجه من حلب للاستحواذ عليها بمفرده دون عائق، أقنعه البرنلي بأن يتوسط له عند السلطان بيبرس حتى يحظى بتعيينه نائبا على حلب¹¹⁷.

وبمجرد رحيل فخر الدين الحمصي عن حلب بسط البرنلي سيادته على نيابتها "واحتاط على ما في حلب من الحواصل، واستبد بالأمر"¹¹⁸. كما ألقى القبض على من كان في

¹¹² فخر الدين إدمار الحلبي، أيدير بن عبد الله الحلبي النجمي، الأمير عز الدين، كان خصيصا عند الملك الظاهر بيبرس، وكان يستتبيه عند توجهه إلى البلاد الشامية، لوثوقه به واعتماده عليه. انظر: أبو المحاسن، النجوم، ج ٢، ص ٢٩٣.

¹¹³ فخر الدين إدمار الحلبي، أيدير بن عبد الله الحلبي النجمي، الأمير عز الدين، كان خصيصا عند الملك الظاهر بيبرس، وكان يستتبيه عند توجهه إلى البلاد الشامية، لوثوقه به واعتماده عليه. انظر: أبو المحاسن، النجوم، ج ٢، ص ٢٩٣.

¹¹⁴ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧. في ابن أبيك "خافه الأمير فخر الدين لما اشتهم خبره". انظر: الدرّة الزكية، ص ٧٢

¹¹⁵ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧.

¹¹⁶ النويري، ج ٣٠، ص ٤٤.

¹¹⁷ العيني، ج ١، ص ٢٩٢؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٠؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ اليونيني، ج ٢، ص ١٠٤ - ١٠٥. انظر أيضا: Abou'l Feda, p. 148 هذا بينما يذكر ابن أبيك أنه حين دخل البرنلي حلب "خافه الأمير فخر الدين لما اشتهم خبره، فعمل في الحيلة على الهرب منه". لذا طلب من البرنلي السماح له للسفر إلى السلطان في مصر "ليتوسط له عنده ويستميله إليه"، ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٧٢.

¹¹⁸ العيني، ج ١، ص ٢٣١؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥

صحبة فخر الدين الحمصي فعاقبهم وصادر أموالهم وممتلكاتهم¹¹⁹. ولم يكتف بذلك، بل "جمع العرب والتركمان، واستعد لقتال عسكر مصر"¹²⁰ ويلاحظ أن هذه كانت المرة الأولى التي تشير فيها المصادر العربية إلى وجود عرب وتركمان في جيش البرنلي وتصرف البرنلي في أمور نيابة حلب بعد أن خلت له، فأصبح الأمر النهائي، "وأمر الأمريات وأقطع الإقطاعات"¹²¹. ووفد عليه آنذاك الأمير زامل بن حديث¹²² "ففرق عليه وعلى أصحابه تسعة آلاف مكوك"¹²³ مما احتاط عليه من الغلال التي كانت مطمورة بحلب"، كما فرق على التركمان أربعة آلاف أخرى¹²⁴. وركب البرنلي الغرور وكان ابن أيبك بليغا حين قال "وظن بنفسه ما ظنه غيره"¹²⁵. وينفرد المقرئ بذكر أن البرنلي أقام بحلب نحو أربعة أشهر، ثم توجه إلى البيرة واستولى عليها ومضى إلى حران¹²⁶ فأقام بها" وصار يقرب من حلب ويبعد عنها خوفا من السلطان"¹²⁷. ومن هنا جاء وصف

¹¹⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧؛ ابن أيبك، الدرّة الزكية ص ٧٢.

¹²⁰ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ العيني، ج ١، ص ٢٩٣.

والملاحظ تطابق الروايات الثلاث بما يؤكد نقل كل من ابن الوردي والعيني عن أبي الفداء

¹²¹ ابن أيبك، الدرّة الزكية، ص ٧٢. انظر أيضا: أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧.

¹²² هو زامل بن علي بن حديث، حضر مع جمع كبير من آل ربيعة - وهي بطن من بطون القحطانية - إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية في سلطنة المعز أيبك التركماني. وكان آل ربيعة سادات العرب ووجوهها وكانت لهم عند السلاطين حرمة كبيرة وصيت عظيم على رونق في بيوتهم ومنازلهم، إلا أنهم مع بعد صيتهم قليل عددهم. انظر: القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - مكتبة التراث الإسلامي بموقع نداء الإيمان على الإنترنت www.al-eman.com.

¹²³ المعروف أن مكيلات حلب كانت تعتبر بالمكوك في حاضرتها وسائر أعمالها، وعبرته في حاضرتها سبع وبيات بالكيل المصري، وأما في نواحيها وبلاها، فيتباين في الزيادة والنقصان. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١٥-٢١٦.

¹²⁴ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧؛ ابن أيبك، الدرّة الزكية، ص ٧٢. والملاحظ أن أبا المحاسن (ت ٨٧٤هـ) نقل عن ابن أيبك (ت ٧٣٣هـ) واكتفى بتبديل كلمة مخزونة بـ"مطمورة".

¹²⁵ ابن أيبك، الدرّة الزكية، ص ٧٢.

¹²⁶ مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقورة، بينها وبين الرها مسيرة يوم، وهي على الطريق الموصل بين الشام والحدود البيزنطية وهي قصبة ديار مضر: ياقوت، المجلد الثاني، ص ١٠٦.

¹²⁷ المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٣٩.

المصادر له "بالمغلب" على حلب، فهو لم يملكها بالحق الوراثي، ولا بمبايعة الناس له ، ولا باستنابته رسميا من قبل السلطان الشرعي للبلاد، وهو الملك الظاهر بيبرس¹²⁸

كان من الطبيعي أن يحتاط السلطان من ازدياد نفوذ وأعوان البرنلي في حلب وانفراده بها. وكان لابد من قمعه وخلعه من نيابة حلب التي نصب نفسه عليها دون موافقته. ولذا فإنه ولى علم الدين سنجر الحلبي - غريم البرنلي - نيابة حلب¹²⁹. ولم يكتف بذلك بل كلفه بقتال البرنلي وإنهاء تمرده وبعث معه عسكريا من ممالك مصر¹³⁰ وعلى رأسهم جمال الدين آقوش المحمدي الصالحي.

وبينما كانت القوات المملوكية المصرية في طريقها إلى حلب التقى أميرها جمال الدين آقوش بفخر الدين الحمصي متوجها إلى مصر للقاء السلطان بيبرس للتوسط لتعيين البرنلي نائبا على حلب. إلا أن وساطة الحمصي قوبلت بالرفض واللوم، وأمره السلطان بالانضمام إلى جيش آقوش المحمدي، والتوجه إلى حلب ثانية لقتال البرنلي¹³¹ ولم يكتف بذلك، بل "أردفه بعز الدين الدمياطي¹³² في جمع آخر، وسار الجميع إلى جهة البرنلي"¹³³ وباقتراب الجيش السلطاني من حلب كان البرنلي على نل السلطان¹³⁴، فاضطر إلى

¹²⁸ في لسان العرب لابن منظور: تغلب على بلد كذا: استولى عليه قهرا. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ٦ مجلدات، المجلد الخامس، ص ٣٢٧٩.

¹²⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١١٣؛ ابن عبد الظاهر، ص ١٤؛ اليونيني، ج ٢، ص ٩٢.

¹³⁰ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧ - ١٨؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١١٣؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ص ٢٠٥.

¹³¹ العيني، ج ١، ص ٢٩٣؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ص ٢٠٥.

¹³² عز الدين الدمياطي، أيبك بن عبد الله الدمياطي، الأمير عز الدين، كان من ممالك الصالحية، ومن أعيان الأمراء بديار مصر، وتنتقل بعدة وظائف إلى أن أمسكه الملك الظاهر وحبسه سبع سنين. أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٥٢٢.

¹³³ العيني، ج ١، ص ٢٩٣؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ص ٢٠٥.

¹³⁴ موضع بينه وبين مدينة حلب مرحلة، نحو دمشق، وفيه خان يعرف بالفندق، البغدادي، ج ٣، ص

الرحيل إلى الرقة¹³⁵. فطارده آقوش المحمدي. وأدرك البرنلي الهزيمة، فخرج من حلب ودخلها سنجر الحلبي ليصبح نائباً معيناً رسمياً من قبل بيبرس¹³⁶.

ولكن جمال الدين آقوش المحمدي لم يكتف بإجبار البرنلي على الخروج من حلب، بل حرص على مطاردته في كل موضع حل به حيث يقول أبو المحاسن "وسار آقوش المحمدي يتبع البرنلي حيث توجه، فأدركه في الطريق فركب البرنلي ودخل على المحمدي في مخيمه..."¹³⁷ طالبا منه أن يستعطف السلطان بيبرس بحيث يقيه - أي يعينه نائباً - على حران لأنه نجح في طرد نواب التتار منها وتولى أمورها مكانهم، وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م، كما قال له "أنا مملوك السلطان، وما هربت خوفاً منه وأخبره أيضاً أنه إذا لم يسمح له السلطان بنبابة حران التي طرد منها نواب التتار، فسيضطر إلى الالتجاء إليهم"¹³⁸. وهنا تبرز مسألة الولاء، فالولاء الوحيد الذي يدين به المملوك هو لمن يجد عنده مصلحته الشخصية ولا يجد المملوك غضاضة في نقل ولائه من سيده إلى عدو سيده ما دامت مصلحته تقتضي ذلك.

غير أن رواية صاحب "المنهل" لهذه الأحداث يكتنفها الغموض، فلا يفهم القاريء لهذه الرواية المقصود بهذه العبارة: "فأدركه في الطريق فركب البرنلي ودخل على المحمدي في مخيمه". فإذا كان البرنلي قد خرج من حلب عند اقتراب عسكر المحمدي، فإن المعنى الوحيد لذلك هو أن البرنلي عرف - أو على الأقل شعر - أن قوات جمال الدين آقوش المحمدي كانت أكبر من أن يواجهها فأثر الفرار من حلب والتخلي عنها حتى لا يقع في

¹³⁵ الرقة من جملة مدائن مدين فيما بين بحر القلزم وجبل الطور: المقرئزي: المواعظ والاعتبار، دار صادر، بيروت، ج ١، ص ٢٢٨، وذكر الأصبخري أن الرقة والرافقة مدينتان متلاصقتان، وف كل واحدة منهما مسجد جامع، وهما على شرقي الفرات كثيرتا الأشجار والمياه في مستوى الأرض خصيبتان. انظر: الأصبخري، مسالك الممالك، نشر دي غويه - ليدن ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م ص ٥٣.

¹³⁶ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ص ٢٠٥؛ العيني، ج ١، ص ٢٩٣؛ العيني، ج ١، ص ٣١٠؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١١٣.

¹³⁷ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨. وقد انفرد أبو المحاسن بذكر تلك الرواية دون غيره من

المصادر.

¹³⁸ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨.

قبضة السلطان. ويؤيد هذا الفرض - أي تفوق قوة المحمدي على قوة البرنلي - عدم اكتشاف أقوش المحمدي بإخراج البرنلي من حلب، وهو الهدف الرئيسي أو الوحيد من وراء حملته، وإصراره على مطاردته في كل مكان نزل به. ويفهم من مجرد لفظة "يتبع" أنه واصل مطاردته له. والأصل في المطاردة أن يكون المطارد، بكسر الراء، أقوى من المطارد، بفتحها. فكيف تستقيم هذه العلاقة بين البرنلي والمحمدي من حيث ميزان القوى ورواية أبي المحاسن عن "ركوب" البرنلي و"دخوله على المحمدي في مخيمه"؟ إن أقل ما يمكن تصوره من هذا "السيناريو" هو أن البرنلي لم يكن يتصرف كطريدة وقعت في يد الصياد الذي كان يطاردها، أو حتى كأسير حرب، فليس ثمة حديث عن حرب جرت بينهما. بل هو يركب جواده، فيما يفترض، حتى يصل إلى خيمة المحمدي فيدخل عليه (بفتح الياء وليس بضمها) ويحدثه. وليس هذا شأن الأسير أو الطرف المهزوم في معركة. وعلى الرغم من نبرة الضعف التي يستشفها القارئ في الحديث الذي توجه به البرنلي إلى المحمدي: "... وقد رغبت إليك في أن تستعطفه بحيث يبقى علي حران"، فإن هذا الضعف الذي يظهره البرنلي إنما هو رسالة دبلوماسية موجهة إلى بيبرس فقط وليس إلى المحمدي أو غيره، غير أن نبرة الاستعطاف هذه سرعان ما تتحول إلى نبرة تهديد. فيقول للمحمدي: "... ومتى لم يسمح لي بها لم أجد بدا من التجائي إلى التتار". ويرى الباحث في حديث البرنلي هذا - والذي كان بلا شك جزءا من حوار جرى بين الرجلين وسكت أبو المحاسن عما جرى على لسان المحمدي فيه - شواهد قوة غير خافية يستند إليها البرنلي في موقفه. ولعل الذي جرى بين الرجلين هو أن المحمدي لحق بالبرنلي وكانت بينهما مسافة فاصلة. ولسبب ما توقف البرنلي عن الفرار وتوقف المحمدي عن المطاردة وقرر الرجلان الدخول في مفاوضات اتفق عليها. فتقدم البرنلي راكبا دون أن يخشى من القبض عليه، ودخل خيمة المحمدي وجرى بينهما ذلك الحديث الذي تكفل المحمدي في نهايته بإيصال التماس البرنلي إلى السلطان، وعاد ثانية إلى حلب. فما كان من البرنلي إلا أن بسط سيادته على حران "وكان ذلك خديعة منه" على حد تعبير أبي المحاسن دون انتظار موافقة السلطان¹³⁹. ولم يكتف بحران بل استولى على البيرة¹⁴⁰ وقصد حلب¹⁴¹

¹³⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨؛ اليونيني: ج ٢، ص ١٠٥؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص

ومن الجدير بالتسجيل أن الانتصار الذي أحرزه البرنلي على التتار في حران رفع من معنوياته ومعنويات أتباعه من العزيزية والناصرية، فتشجع للانقضاض على غيرها من بلاد الشام. ومن ناحية أخرى، فقد أدرك بيبيرس مدى خطورة هذا الثائر العنيد على النيابات الشامية الأخرى التي ربما تشجعه على الانفصال عن جسد سلطنة المماليك البحرية. يضاف إلى ذلك أن اليأس قد تطرق إلى قلب البرنلي في مساعيه الرامية إلى المصالحة مع السلطان بيبيرس، خاصة بعد فشل مساعي كل من فخر الدين الحمصي وجمال الدين آقوش المحمدي، بل إنه أوفد غيرهما لتحقيق حلمه بالاعتراف به نائبا على حلب أو غيرها من البلدان الشامية. فقد أورد محيي الدين ابن عبد الظاهر كاتب سيرة السلطان الظاهر أن السلطان "أبى إلا حضوره إلى الخدمة"¹⁴². وبلغت مساعي البرنلي السلمية مداها حين سير إلى السلطان بيبيرس علم الدين جلم الأشرفي¹⁴³ بكتبه يسأله الصفح¹⁴⁴ "ومعه كفنه وسيفه"¹⁴⁵. إلا أن كل تلك المساعي تحطمت لانعدام الثقة بين الطرفين من ناحية، ولتهديد البرنلي بالارتقاء في أحضان هولاءكو إيلخان¹⁴⁶ التتار الأعظم من ناحية أخرى.

¹⁴⁰ البيرة بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة لها رستاق واسع (انظر : ياقوت، ج ٢، ص ٣٣٠؛ البغدادي، ج ١، ص ٢٤٠)، وفي الكامل أنها قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزري: انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ - بيروت ١٩٨٧م، ج ١٠، ص ١٠٨، وانظر أيضا Dussaut, R., Topographie Historique De La Syrie Antique et Médiéval, Paris, 1924, p. 461

¹⁴¹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨.

¹⁴² ابن عبد الظاهر، ص ١١٣.

¹⁴³ في نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٤٥ : "حكم"، وفي "الروض الزاهر" ص ١١٣ : "جلم" وصحة ذلك "حكم الأشرفي". انظر: العيني، ج ١، ص ٣٢٢.

¹⁴⁴ النويري: ج ٣٠، ص ٤٥.

¹⁴⁵ ابن عبد الظاهر، ص ١١٣.

¹⁴⁶ أطلق التتار لقب "خاقان" على الرئيس الأعلى لدولتهم، ومعناه "الخان الأعظم". و"خاقان" يختلف عن "خان" الذي أطلقوه على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من إمبراطورية التتار. وقد استعمل التتار لقب "خان" أيضا بمعنى "خاقان"، وربما كان ذلك من باب الرغبة في الاختصار. انظر: ابن أبي الفضائل،

أما انعدام الثقة بين الرجلين فيظهر جليا فيما أورده النويري من أن السلطان "لم يزل يكاثبه ويرغبه ويعطيه العهود والمواثيق على الوفاء" إلا أن البرنلي لم تتطل عليه تلك السياسة الماكرة لانعدام وفاء السلطان بوعوده ونكته العهد. ويؤكد ذلك أن السلطان سير إليه الأمير بدر الدين بكتاشي الفخري¹⁴⁷ حاملا إليه رسالة "وشافهه باليمين"، فقال له الأمير شمس الدين آقوش البرنلي: "فقد جاءتني رسالة هولاکو يطلبني إليه، وحلف لي، وهذه رسالة السلطان ويمينه، وأنا، والله "أعلم أن هولاکو يفي، وأن السلطان لا يفي"¹⁴⁸.

ونخلص من رد البرنلي إلى أنه أقدم على مراسلة هولاکو، وأن إيلخان التتار انتهز تلك الفرصة المواتية لتشجيعه على خيانة سيده قاهر التتار في عين جالوت وتمزيق صفوف الجيش المملوكي حتى يتمكن من استعادة بلاد الشام. وتناسى البرنلي أن التتار لا يلتزمون طوال تاريخهم الدموي بتعهداتهم ووعودهم، وأن إقدامه على تصرف كهذا يعد خيانة في حق سلطنة المماليك والمسلمين عامة، لاسيما وأن التتار كانوا يظلمون آنذاك بإزالة آثار

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه في: P.O., t. XII-XIV, Paris, 1911، ص ٧٣، حاشية رقم ١؛ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٣٠٧، حاشية رقم ٤. انظر أيضا: فايز نجيب اسكندر: المشرق الإسلامي في مواجهة تحالف المغول والأرمن - مجلة الثقافة اليمنية - العدد ١٩ - ص ١٠٧، حاشية رقم ٢. وكذلك: GESTES DES CHIPROIS, DANS R.H.S., DOC ARM, T. II, P. 841, N.D.

¹⁴⁷ هو بكتاش بن عبد الله الفخري، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م. وقد اتصف بالشجاعة والعقل والخير وكان مقدما على الجيوش. أصله من ممالك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نقل إلى ملك الملك الصالح نجم الدين، فترقى في الخدمة حتى صار من كبار الأمراء، وغزا غير مرة. انظر أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٣٨٥؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق - ٥ أجزاء - القاهرة ١٩٦٦، ج ٢، ص ٢٤؛ الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان - مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 2051 - ورقة ٥٦، ترجمة، رقم ٨٦؛ المقرئزي، التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها - مخطوط بالمركز القومي للأبحاث العلمية بباريس CNRS رقم 2832 - ورقة ٢٥٤ أ - ٢٥٥ ب؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٨، ص ٢٢٤؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه في أين المنصور وبنيه، ج ١ و ٢ نشر وتحقيق محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦، ج ١، ص ٢٧٧.

¹⁴⁸ النويري، ج ٣٠، ص ٥٩.

الهزيمة الساحقة التي لحقت بهم في عين جالوت على يد الأمراء المماليك. وكان البرنلي أحدهم آنذاك، إذ حارب جنبا إلى جنب مع الظافرين قطز وبيبرس¹⁴⁹.

وأثبت علم الدين سنجر الحلبي - الذي هزمه آقوش البرنلي مرتين - مرة في صفر سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م، عندما استرد دمشق منه لصالح بيبرس¹⁵⁰، ومرة في شعبان من العام نفسه عندما هزم القوات التي أرسلها سنجر بناء على أوامر بيبرس لقمع تمرد البرنلي¹⁵¹ - عدم قدرته على بسط سيادته على حلب. فأتثناء إقامة البرنلي بتل باشر¹⁵²، خرج عن طاعة علم الدين سنجر الحلبي نائب حلب "أكثر من كان معه ولحق بالبرنلي"، فما كان من علم الدين سنجر إلا أن خرج من حلب ليلا، وسار إلى دمشق¹⁵³. وكان من الطبيعي أن يسعى آقوش البرنلي من جديد إلى بسط سيادته على حلب بعد أن طرده منها جمال الدين آقوش المحمدي. وبالفعل أرسل إليها الطقصبا بن عبد الله الناصري التركي¹⁵⁴

¹⁴⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٦، ١٧.

¹⁵⁰ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧.

¹⁵¹ النويري، ج ٣٠، ص ٤؛ ابن عبد الظاهر، ص ١١٣.

¹⁵² تل باشر: كانت قلعة حصينة وكورة واسعة في شمال حلب، ولها ريبض وأسواق عامرة، وأهلها نصارى أرمن، ياقوت، ج ٢، ص ٤٠٢.

¹⁵³ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٣٧؛ انظر أيضا أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨.

¹⁵⁴ هو الطقصبا بن عبد الله الناصري التركي (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٧م)، طقطاي بن عبد الله الطوشي الرومي، الأمير عز الدين، من رؤوس الفتن في وقعة الناصري ومنطاي، وممن بارز برقوق بالعداوة، فقد كان من عسكر الناصري الذين هاجموا القاهرة ضد برقوق. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٦، ص ٢٢٨.

وكيكلدي الحلبي¹⁵⁵. وتسلمهاها من الخارجين على علم الدين سنجر الحلبي نائب بيبيرس على حلب¹⁵⁶

عندما سمع بيبيرس بتلك الأحداث الخطيرة، وجه اللوم إلى أميره آقوش المحمدي¹⁵⁷ الذي كان قد استقبله بعيد تلك الأحداث. ولا شك أنه كان هناك أكثر من سبب لتوجيه اللوم إلى آقوش المحمدي. إذ أنه فرط في أمر حلب، ولم يتخذ موقفا تجاه من خرجوا على علم الدين سنجر وانضموا إلى البرنلي، بالإضافة إلى ما تكفل به من التوسط للبرنلي لدي بيبيرس ليعينه نائبا على حران. وأدرك بيبيرس ضرورة تدخله شخصيا حتى يعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، وحتى لا تؤول حلب إلى التتار وتصبح مركزا عسكريا لهم لاستعادة بلدان الشام، الأمر الذي يعكس تخوف بيبيرس من تواطؤ البرنلي مع المغول وسقوط حلب في أيديهم بشكل أو بآخر، لا سيما وإن البرنلي كان قد هدد بالفعل باللجوء إليهم لذا فقد استتاب بيبيرس على مصر عز الدين أيدير الحلبي¹⁵⁸ ورتب أمور السلطنة¹⁵⁹. وسار بيبيرس على رأس قواته إلى دمشق، فدخلها يوم الاثنين سابع ذي القعدة سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، وعين الأمير علاء الدين إيدكين البندقاري نائبا على حلب

¹⁵⁵ هو الطقصابا بن عبد الله الناصري التركي (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٧م)، طقطاى بن عبد الله الطوشي الرومي، الأمير عز الدين، من رؤوس الفتن في وقعة الناصري ومنطاي، وممن بارز برقوق بالعداوة، فقد كان من عسكر الناصري الذين هاجموا القاهرة ضد برقوق. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٦، ص ٢٢٨.

¹⁵⁶ قتل كيكلدي الحلبي في سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦١م. كنز الدرر وجامع الغرر - تحقيق أولرخ هارمن، القاهرة ١٩٧١، ج ٨، ص ٨٨، سنة ٦٦٠.

¹⁵⁷ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٣٤٠ - ١٣٥١، ج ٥، ص ٣٥٧.

¹⁵⁸ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٩؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٤.

¹⁵⁹ العيني، ج ١، ص ٣١٠ - ٣١١؛ ابن كثير، ج ١٣، ص ٢٣٢ - ٢٣٣؛ النويري، ج ٣٠، ص

"فتوجه إليها وأقام بها"، وبعث معه قوات مملوكية بقيادة الأمير بلبان الرشيدى¹⁶⁰ وأمره بالتوجه إلى حلب "لمحاربة البرنلى المتغلب عليها المفسد فيها"¹⁶¹.

هكذا انطلقت القوات المملوكية من دمشق بقيادة الأمير بلبان الرشيدى وذلك في منتصف ذي القعدة سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م لقتال البرنلى "المتغلب على حلب". فلما وصلوا إلى حماة خرج البرنلى من حلب وقصد حران، فتعقبه الرشيدى، بينما نجح نائب حلب الجديد علاء الدين البندقدارى في دخولها. وياقتراب الرشيدى من نهر الفرات، اضطر البرنلى إلى الرحيل عن حران¹⁶² وقصد قلعة القراى¹⁶³، فحاصرها حتى أخذها من التتار عنوة ونهبها وفي غضون ذلك عاد الرشيدى إلى مصر، بينما رجع البرنلى إلى البيرة، وبعث جماعة من أنصاره إلى حلب. وحين سمع بذلك علاء الدين البندقدارى، فر من حلب وقصد حماة¹⁶⁴ ودخل البرنلى حلب¹⁶⁵ إذ خشي [علاء الدين] عودة البرنلى على حد قول النويرى¹⁶⁶. بينما تذكر مصادر أخرى أنه شاعت أقدار الأمير علاء الدين البندقدارى أن يقيم بحلب وهي "في أشد ما تكون من غلاء الأسعار، وعدم الأوقات"¹⁶⁷، كما تضرر

¹⁶⁰ بلبان بن عبد الله الزينى الصالحى، الأمير سيف الدين، مقدم البحرية أوائل دولة الأتراك. حبسه الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م مدة يسيرة ثم أطلقه وجعله أميراً بدمشق. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٦، ص ٤١٧؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ٤٠٥ و ٤١٠؛ المقريزى، السلوك، ج ١، ص ٥٥٧، سنة ٦٦١، ابن أبيك، كنز الدرر، ج ٨، ص ١٩.

¹⁶¹ ابن كثير، ج ١٣، ص ٢٣٣؛ العيني، ج ١، ص ٣١١؛ النويرى: ج ٣٠، ص ٤٤.

¹⁶² أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٩.

¹⁶³ لم يعثر الباحث على معلومات كافية عن هذه القلعة، وإن كان ابن الأثير قد أشار إلى قرية بهذا الاسم تحت أحداث سنة ٥٩٨هـ، حيث ذكر أن الملك العادل صاحب دمشق حاصر ماردين ثم أرسل طائفة من عسكره إلى رأس عين لقمع ثورة للتركمان، ولكنها لم تحقق هدفها وتدخل الملك الظاهر صاحب حلب للصلح بينهما. واتفق على أن يأخذ الظاهر عشرين ألف دينار و"قرية القراى من أعمال شيختان". الكامل، ج ١٠، ص ٢٨١، وهو ما يرجح وقوع هذه القرية في مكان ما بالقرب من ماردين ورأس عين (جنوبي تركيا في العصر الحديث).

¹⁶⁴ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٩.

¹⁶⁵ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠.

¹⁶⁶ النويرى، ج ٣٠، ص ٤٥.

¹⁶⁷ ابن عبد الظاهر، ص ١١٣. انظر أيضاً: النويرى، ج ٣٠، ص ٤٥.

الجند المصاحبون لعلاء الدين البندقداري من انعدام الأوقات وانتشار المجاعة في ربوع حلب لدرجة أن نائبها لم يقو على البقاء بها، فغادرها وأقام بحماة¹⁶⁸، واعتذر للسلطان عن فعلته تلك قائلاً "إنما فارق حلب لشدة الغلاء وعدم الأوقات"¹⁶⁹.

وهكذا أتاح نائب حلب علاء الدين البندقداري الفرصة لأقوش البرنلي لدخولها، وحاول البرنلي تبرير سبب عودته ثانية إليها بمفارقة نائبها لنيابته بمحض إرادته، كذلك كتب اعتذاراً إلى السلطان يعتذر فيه عن رجوعه إليها وأنه تحت طاعته "وتوالت كتبه بالاعتذار"¹⁷⁰.

من أهم الملامح التاريخية للفترة التي يؤرخ لها هذا البحث، ملمح يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك طموحات البرنلي وتطلعاته ومحاولاته المستمرة لإثبات وجوده كإحدى القوى السياسية المؤثرة في المنطقة في ذلك الوقت. ونعني بذلك مبايعته لأبي العباس أحمد حفيد الخليفة المسترشد بن المستظهر العباسي (٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م)، الذي كان في طريقه إلى مصر بناء على دعوة بيبرس لبياعه خليفة للمسلمين. وقد أراد بيبرس بذلك أن ينفذ مشروع إحياء الخلافة العباسية. ولكن أبا العباس رجع إلى الشام وقصد حلب عندما علم أن رجلاً آخر من أبناء البيت العباسي هو أبو القاسم أحمد، سبقه إلى حضرة بيبرس الذي بايعه فعلاً في مجلس عام بالديوان الكبير بالقلعة، ولقب بالخليفة المستنصر (٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م). وكتب بيبرس إلى الملوك والنواب أن يأخذوا البيعة للخليفة وأن يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده، وأن تنقش السكة باسمهما¹⁷¹.

¹⁶⁸ ابن عبد الظاهر، ص ١١٣

¹⁶⁹ ابن عبد الظاهر، ص ١١٣.

¹⁷⁰ ابن عبد الظاهر: ١١٣ - ١١٤؛ اليونيني، ج ٢، ص ١٥٢. وقد نقل عنه النويري نقلاً حرفياً.

انظر نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٤٥.

¹⁷¹ النويري، ج ٢٨، ص ١٨؛ المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٤٥٣ - ٤٥٧؛ الذهبي، ج ٢، ص

١٦٥، انظر أيضاً: العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٨٤.

أما أبو العباس أحمد الذي رجع إلى الشام، فقد قصد حلب كما سبق القول حيث بايعه أميرها شمس الدين البرنلي ولقبه بالحاكم بأمر الله¹⁷² وأمه بسبعمائة فارس من التركمان¹⁷³. فسار بهم الخليفة إلى بلدة عانة على الحدود العراقية لمناوشة التتار. ويذكر أن قطز كان قد فكر في سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م في إعادة الخلافة إلى بغداد فاستدعى الأمير أبا العباس أحمد إلى دمشق وبايعه بالخلافة ولكن قطز قتل قبل أن يعيد أبا العباس إلى بغداد وعاد أبو العباس إلى مقاتلة التتار على الحدود الفراتية. غير أن الحاكم انصاع - كما يذكر أبو شامة - للمستنصر بسبب أنه الأصغر وذلك الأكبر (أي المستنصر) ووقع الاتفاق وزال الشقاق بينهما¹⁷⁴.

والذي يهمننا في هذا المقام مبايعة البرنلي لأبي العباس أحمد بعد ضياع فرصة هذا الأخير في الحصول على مبايعة بيبرس. فكأنه أراد بهذه المبايعة الرد على مبايعة بيبرس لأمر عباسي آخر، والإمعان في الخروج عليه من جهة، واكتساب الشرعية لحكمه حلب من

¹⁷² الذهبي، ج ٢، ص ١٦٥.

¹⁷³ كان "التركمان" ينتشرون في معظم أنحاء بلاد الشام، وبخاصة مناطق الفرات. "وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة". ويعد القلقشندي عشر طوائف من تركمان الشام. للتفاصيل انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ١٩٠، ٢٨٢؛ ابن شاهين الظاهري: ص ١٠٤ - ١٠٥). وقد استعانت سلطنة المماليك ببعض قبائل التركمان، ووفرت لهم الإقطاعات نظير قيامهم على حماية أطرافها من الأعداء المتاخمين وهم: الصليبيون والتتار والأرمن؛ هذا فضلا عن مهمة إخضاع القبائل التركمانية الأخرى التي كانت كثيرة الإغارة على بلاد سلطنة المماليك. واستقرت الإمرة على التركمان في الأطراف الشمالية في بيت "دلغادر" تارة وبيت "ابن رمضان" تارة أخرى. وهؤلاء أشهر طوائف التركمان. (للتفاصيل انظر: القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول - بيروت ١٩٦٩، ص ٣٢٩ - ٣٤٠. انظر أيضا: حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برفوق، الإسكندرية ١٩٧٦، ص ٥-١٩. ولم تكن أملاك الإمارات التركمانية مستقرة بصفة مستديمة بسبب النزاع المستمر بينها، والذي كان ينتج عنه زيادة ونقصان في بعض هذه الأملاك. انظر: حلمي محمد سالم، المرجع السابق، ص ٩ - ١٩. انظر أيضا: فايز نجيب اسكندر: السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة المسلمين، الاسكندرية، ١٩٩٩، ص ٣٠، حاشية ٤.

¹⁷⁴ أبو شامة، ذيل كتاب الروضتين، تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان "تراجم رجال القرنين السادس والسابع"، القاهرة، ١٩٤٧ ص ٢١٥. وانظر أيضا: العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٨٦.

خلال التأييد المتوقع من أبي العباس أحمد اعترافا بجميله الذي أسداه إليه بمبايعته خليفة للمسلمين من جهة أخرى.

الإمير شمس الدين أقوش البرنلي والمغول

أقام البرنلي بطلب إلى أن كتب إليه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ¹⁷⁵ (٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م) صاحب الموصل طالبا نجدهته ضد التتار¹⁷⁶. وكانت الموصل آنذاك تموج بالاضطرابات والانقسامات، فانتهاز القائد التتري صندغون¹⁷⁷ تلك الفرصة السانحة للانقضاض عليها على رأس عشرة آلاف فارس وأحكم حصارها، "ونصب عليها خمسة وعشرين منجنيقا"¹⁷⁸ ترمي ليلا ونهارا¹⁷⁹. هذا بينما لم يكن بالموصل سلاح¹⁸⁰ تدفع به الغزاة، وطال أمد الحصار¹⁸¹ إلى أن تفشت المجاعة في ربوعها¹⁸². وفي مواجهة تلك الضائقة، استتجد الملك الصالح بالإمير شمس الدين أقوش البرنلي "متملك حلب" وفي نفس الوقت أوفد أخويه إلى السلطان الظاهر

¹⁷⁵ هو لؤلؤ بن عبد الله النوري الملك الرحيم بدر الدين أبو الفضائل الأرميني الأتابكي صاحب الموصل توفي سنة ٦٥٧ هـ، صاحب الموصل. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٦، ص ٣٧٥.

¹⁷⁶ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠.

¹⁷⁷ في ابن العبري "سمدغو" (انظر: تاريخ الزمان - ترجمة إسحق أرملة - بيروت ١٩٨٦ - ص ٣٢٢. أما في مصنف ابن العبري الثاني فقد ورد على شكل "سمدغو" (انظر: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٤)، بينما في أبو المحاسن، المنهل (ج ٣، ص ٢٠) وابن أبيك، الدرّة الزكية (ص ٨٨) والمقرئزي، المقرئزي، السلوك (ج ١، ص ٥٤٥) "صندغون"؛ وفي ابن الفوطي (ص ١٦٧) "سنداغو"، في حين أورده مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني على شكل "سنداغو نويان". انظر: جامع التواريخ، م ٢، ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٤٠.

¹⁷⁸ ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٨٨؛ ابن أبي الفضائل، ص ٩٤. انظر أيضا: D'Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguï - Khan Jusqu a Timour Bey Ou Tamerlan , 4 Vols, Amsterdam, 1852 t. III, pp. 370-371

¹⁷⁹ ابن الفوطي، ص ١٦٧.

¹⁸⁰ ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٨٨.

¹⁸¹ ابن الفوطي، ص ١٦٧.

¹⁸² أبو شامة، ج ١، ص ٤٩٢؛ ابن الفوطي، ص ١٦٧؛ ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٨٨؛ اليونيني، ج ٢،

ص ١٥٢؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٤. انظر أيضا: D'Ohsson, t. III, pp. 373-374p Grousset, R., L'Empire; Des Steppes, Paris, 1939, p. 440

بيبرس ليطلب الإسراع بنجدة أخيهما الملك الصالح واستجاب الظاهر لمطلبهما وانطلق جيش من مصر بقيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومي¹⁸³. وكان ذلك في الرابع من جمادى الأولى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م. كما أصدر أوامره إلى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس¹⁸⁴ بالإسراع على رأس جيش من دمشق لنجدة الملك الصالح¹⁸⁵.

ولكي يثبت البرنلي حسن نواياه، ويطمئن الظاهر إلى أنه لم يخرج عن طاعته، وليكسب الشرعية في الاستحواذ على حلب بموافقة صاحب الحل والعقد السلطان بيبرس، كتب إليه "يستأذنه في التوجه لنصرته [أي لنصرة الملك الصالح]¹⁸⁶، والسلطان يغلظ له وقتاً، ويلين وقتاً آخر"¹⁸⁷، مما يؤكد براعة بيبرس السياسية في مواجهة الحركات الاستقلالية التي تراكبت وتزامنت مع الأخطار الخارجية التي أحاطت من كل جانب بسلطة المماليك التي كانت لا تزال في مرحلة الميلاد واكتساب الشرعية، والتي قامت على أنقاض الدولة الأيوبية التي كان البرنلي من مناصريها والساعين لإحيائها في بلاد الشام على وجه الخصوص. فكانت سياسة بيبرس تقوم على استخدام اللين تارة، والشدة تارة أخرى.

¹⁸³ الأمير شمس الدين سنقر بن عبد الله الصالح النجمي، كان من عتقاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، ومن أعيان مماليكهن ثم صار بعد موته من جملة الأمراء، ثم توجه إلى دمشق فأمسكه الناصر يوسف صاحب حلب وحبسه. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٦، ص ٨٧.

¹⁸⁴ طيبرس بن عبد الله، الأمير الكبير علاء الدين الظاهري البغدادي التركي، اشتراه الخليفة الحاكم بأمر الله فحظي عنده وجعله دوا داره، ولما كانت الخلافة قد آلت للمستنصر بالله، قدمه ورفع قدره، فشاع ذكره. انظر أبو المحاسن، المنهل، ج ٧، ص ٣٣.

¹⁸⁵ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٤٦٧ - ٤٦٨، حاشية رقم ٤؛ ابن عبد الظاهر، ص ١١٤؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٥؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٠٥؛ اليونيني، ج ٢، ص ٢٠٧؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١١٧.

¹⁸⁶ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٥؛ ابن عبد الظاهر، ص ١١٤. هذا بينما أورد ابن الفوطي أن بيبرس أرسل إلى الملك الصالح لنصرته "أميراً" اسمه إيلبرك في جماعة". انظر: ابن الفوطي، ص ١٦٧.

¹⁸⁷ ابن عبد الظاهر، ص ١١٤؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٥.

ودون الغوص في تفاصيل الصراع التتاري المملوكي حول الموصل¹⁸⁸ سنكتفي بتسليط الأضواء على دور شمس الدين آقوش البرنلي في هذا الصراع التزاما بعنوان البحث.

لقد وافق الظاهر بيبرس على خروج شمس الدين آقوش البرنلي على رأس قواته لمناصرة الملك الصالح في قتاله ضد التتار. ويمكن إرجاع موافقة بيبرس على ذلك إلى أكثر من سبب، وأول هذه الأسباب أن بيبرس ربما رأى في ذلك فرصة للتخلص من البرنلي فقد يلقي حتفه في حربه ضد التتار، والسبب الثاني أنه أراد أن يستفيد من خبرة البرنلي في قتال التتار. فقد سبق له - كما أوضحنا من قبل - أن طرد التتار من حران، وبعد أن رحل عن حران وقصد قلعة قرادي، وحاصرها إلى أن أخذها عنوة من التتار ونهبها¹⁸⁹. كما أنه حين توجه إلى البيرة واستولى عليها "جعل يثخن الغارات على التتار الذين هم بشرقي الفرات،" ويكسب من يستفرده منهم¹⁹⁰ فأظهر بذلك شجاعة فائقة. أما السبب الثالث فهو أن أي انتصار يمكن أن يحرزه البرنلي على المغول سوف ينسب حتما إلى بيبرس نفسه.

وافق بيبرس إذن على خروج البرنلي إلى الموصل. غير أن موافقته كانت مشروطة، إذ أمر البرنلي "بالتربص بحران إلى أن يصل إليه العسكر السلطان لنجدة صاحب الموصل¹⁹¹، أي أن عليه عدم الانفراد بمواجهة التتار خوفا من إحراز النصر عليهم،

¹⁸⁸ عن تفاصيل ذلك انظر: رشيد الدين: م ٢، ج ١، ص ٣٢٧ - ٣٣٠، ويعد أكمل وأهم المصادر على الإطلاق، إلا أنه ينحاز إلى جانب المغول. انظر أيضا: ابن أبيك، الدرر الزكية ص ٨٨ - ٨٩؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠؛ العيني، ج ١، ص ٣٢٢؛ ابن عبد الظاهر، ص ١١٤؛ اليونيني: ج ٢، ص ١٥٢؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٥؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٢ - ٢٨٤؛ تاريخ الزمان، ص ٣٢٢؛ المقرئزي، السلوك، ٥٤٥؛ ابن الفوطي: ص ١٦٧.

¹⁸⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٩.

¹⁹⁰ العيني، ج ١، ص ٣٢٢.

¹⁹¹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠.

فتزداد أطماعه التوسعية ويزداد نفوذه على حساب السلطان بيبرس. وقد أكد العيني ذلك حين أورد أن البرنلي "طمعت آماله في قصد سنجار"¹⁹².

أما أقوش البرنلي، فقد كان يخشى من بطش السلطان ومراوغته ومكره وعدم التزامه بتعهداته ومواريثه؛ إذ قال للأمير بدر الدين بكتاش الفخري أن هولاءكو إيلخان التتار يفني والسلطان لا يفني - كما سبق القول.

ومن هذا المنطلق، احتاط البرنلي من كل خطوة يقدم عليها، خوفا من إلقاء القبض عليه أو اغتياله. فنفذ جزءا من أوامر السلطان، إذ وصل إلى حران وأقام بها، وكان عليه - لتنفيذ الأوامر كاملة - انتظار الجيش المملوكي الزاحف من مصر ودمشق، إلا أنه "خاف من العسكر السلطاني أن يقبض عليه" على حد قول أبي المحاسن بن تغري بردي¹⁹³ فتوجه إلى سنجار دون انتظار القوات المساعدة. وربما أراد الانفراد بالنصر على التتار، خاصة وأنه اعتاد قتالهم والنصر عليهم، فيؤدي ذلك بالتالي إلى ارتفاع شأنه في مواجهة السلطان بيبرس.

ويذكر أن جيش البرنلي - حين وصل إلى سنجار¹⁹⁴ - كان عدته "تسع مائة فارس من حلب، وأربع مائة تركمان"¹⁹⁵، ومائة عرب¹⁹⁶. وعندما علم التتار بقرب وصول نجدات إلى الملك الصالح من مصر ودمشق، وطال أمد الحصار رأى سنداغو [صندغون] أن

¹⁹² العيني، ج ١، ص ٣٢٢، وتقع سنجار غرب الموصل على نفس الخط العرضي، وهي أقرب إلى خط عرض ٣٦، حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧، الخريطة رقم ٦١، ص ١١٣.

¹⁹³ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠.

¹⁹⁴ شافع بن علي، ص ٤٦. ويؤخذ عليه القول أن التتار تمكنوا من قتله. وهذا يتعارض مع كافة المصادر الإسلامية. و"سنجار" بالكسر، ثم السكون، ثم جيم، وآخره راء: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة في لحف جبل. انظر: البغدادي، ج ٢، ص ٧٤٣.

¹⁹⁵ فايز، الأشرف خليل، ص ٣٠، حاشية ٤.

¹⁹⁶ ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٨٨؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١. هذا بينما أورد النويري أن البرنلي "كان معه نحو ألف فارس" بينما كان التتار "في جموع كثيرة"؛ انظر: ج ٣٠، ص ٤٥.

القتال والزحف لا يجديا نفعا وأمسك عن ذلك¹⁹⁷. وتطرق اليأس إلى قلب التتار وقائدهم، وعزموا على ترك حصار الموصل والهرب، لولا وصول "الزين الحافظي" موفدا من قبل هولاء لتشجيع المقاتلين على استمرار الحصار، وأخبرهم أن جيش البرنلي "شرذمة يسيرة"¹⁹⁸ وأنه لا يقوى على مواجهة جيش التتار، وأن المصلحة تقضي ملاقاته¹⁹⁹. وأورد مؤرخ التتار رشيد الدين أن هولاء حين علم بصمود أهل الموصل أسرع بإرسال جيش لإمداد سنداغو²⁰⁰ نويان²⁰¹ [صندغون]. فتشجع التتار على مواصلة إحكام حصارهم لسنجار. وكان البرنلي عندما بلغ سنجار قد كتب رسالة إلى الملك الصالح أمير الموصل يخبره بوصولهم، وربطها في جناح حمامة وأطلقها إليه. إلا أن الحمامة حطت على منجنيق التتار، فأمسكها المنجنيقي، وحمل الرسالة إلى صندغون²⁰². فلما قرأها عد ذلك من إمارات إقباله، فسير على الفور عشرة آلاف جندي²⁰³ خص كل فرد منهم ثلاثة من الجياد. وبالقرب من سنجار انقسموا إلى ثلاث فرق، وينفرد العيني بالقول إن المغول أعدوا كميناً للبرنلي²⁰⁴ الذي لم يحسب للكمين حساباً وطاردوا جيشه²⁰⁵.

وهكذا استعد الجمعان للقتال وكان اللقاء يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م²⁰⁶. فثبت جيش البرنلي وقاوم التتار²⁰⁷، إلا أن هبوب الرياح العاصفة فجأة جاء لصالح التتار، إذ ألقت الرمال والحصى في عيون الشاميين، فعجزوا

¹⁹⁷ ابن الفوطي، ص ١٦٧.

¹⁹⁸ ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٨٨.

¹⁹⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠.

²⁰⁰ جامع التواريخ، م ٢، ج ١، ص ٣٢٨.

²⁰¹ نويان "كلمة تتارية تعني قائد تومان يبلغ عدته عشرة آلاف مقاتل. انظر: Howorth, History of the Mongols, London, 1975, t. III, p.152.

²⁰² رشيد الدين، م ٢، ج ١، ص ٣٢٨ - ٣٢٩؛ ابن الفوطي، ص ١٦٧.

²⁰³ رشيد الدين، م ٢، ج ١، ص ٣٢٩؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠.

²⁰⁴ انفرد العيني بالقول: "كمن له التتار وهو لا يشعر". انظر: عقد الجمان، ج ١، ص ٣٢٢. بينما

سجل أبو المحاسن تردد البرنلي في قتال التتار. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

²⁰⁵ رشيد الدين، م ٢، ج ١، ص ٣٢٩.

²⁰⁶ ابن أبيك، الدرّة الزكية ص ٨٨.

²⁰⁷ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

عن القتال²⁰⁸ وأحاط بهم التتار "وقتلوهم جميعهم، وكسبوا ما معهم من الخيل والسلاح وغير ذلك"²⁰⁹. كما فر الباقون وقتلوا كثيرا من أهل سنجار وأسروا النساء والأطفال²¹⁰. وكان من بين القتلى بعض كبار قادة جيش البرنلي ومن بينهم سنجر الناصري²¹¹. كما أسر علم الدين جلم²¹² وولده، وبكتوت الناصري²¹³. واعترفت المصادر الإسلامية أن البرنلي والأمراء العزيزية والناصرية "قاتلوا قتالا شديدا"²¹⁴ حتى أن متملك حلب "سقط عن فرسه فانكسرت رجله، وركبه أحد مماليكه وساق يوما كاملا، ولم يعلم من معه أن رجله كسرت"²¹⁵.

وبعد هزيمة جيش البرنلي، ارتدى التتار الملابس الشامية، وأطلقوا شعورهم جريا على عادة الأكراد ثم توجهوا إلى الموصل، فخرج سكانها ظانين أنهم شاميون جاءوا لإمدادهم، فأقاموا الأفراح بهذه المناسبة فما كان من جنود التتار إلا أن أحدقوا بهم من كل جانب، ولم يتركوا واحدا منهم حيا، وظلوا يحاربون مدة ستة أشهر، ونتج عن ذلك انتشار القحط والأوبئة بالمدينة واشتد بهم الأمر حتى أكلوا الميتة ولحوم الكلاب²¹⁶ وتوجه الناس إلى

²⁰⁸ رشيد الدين، م ٢، ج ١، ص ٣٢٩.

²⁰⁹ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٤.

²¹⁰ رشيد الدين، م ٢، ج ١، ص ٣٢٩.

²¹¹ سنجر بن عبد الله الدواداري الناصري، الأمير علم الدين أبو محمد. كان من أعيان أمراء الملك المنصور قلاوون، وولده الشرف خليل ن قال عنه ابن الزمكاني "أمير جليل مشهور بالعقل الوافر والديانة. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٦، ص ٧٨. وقتل في هذه المعركة أيضا من قادة البرنلي علم الدين الزوباشي وعز الدين أيبك السلیماني، لمزيد من التفاصيل انظر: العيني، ج ١، ص ٢٣؛ ابن أيبك، الدرّة الزكية ص ٨٨.

²¹² ابن أيبك، الدرّة الزكية ص ٨٨. وفي العيني (ج ١، ص ٣٢٢). علم الدين حكم الأشرفي.

²¹³ ابن أيبك، الدرّة الزكية، ص ٨٨، وبكتوت الناصري هو بكتوت بن عبدالله العزيزي، الأمير سيف الدين، استادار الملك الناصر يوسف صاحب حلب. كان ذا حرمة وافرة، ورتبة عالية، ومهابة شديدة، وله إقطاعات ضخمة. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٤١٠.

²¹⁴ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١؛ نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٤٥؛ المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٧١.

²¹⁵ النويري، ج ٣٠، ص ٤٥؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

²¹⁶ ابن الفوطي، ص ١٦٧.

الصحراء بسبب الجوع فساروا طعمة لسيوف التتار²¹⁷. وهكذا كانت تلك الأحداث من تبعات هزيمة البرنلي وانعكاساتها على سكان الموصل.

ومن الغريب أن المصادر لا تذكر شيئاً عما كان من أمر الجيش الذي انطلق من مصر تحت قيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومي في الرابع من جمادى الأولى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م، أو الجيش الذي انطلق من دمشق تحت قيادة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس / نجدة الملك الصالح بناء على أوامر بيبرس. فهل كان هذان الجيشان في الطريق عندما انهزم البرنلي أمام المغول في الرابع عشر من جمادى الآخرة، أي بعد أربعين يوماً من انطلاقهما من القاهرة ودمشق، فبلغتهما أنباء الهزيمة التي مني بها البرنلي وعادا أدرجهما؟ أم أن الجيشين وصلا بعد فوات الأوان؟ أم أن قائدي الجيشين تلقيا أوامر من بيبرس بعدم الانضمام إلى البرنلي حتى ينفرد به المغول فيتخلص منه بيبرس بهذه الطريقة عقاباً له على عدم الالتزام بأوامره والانتظار حتى يأتيه العسكر السلطاني المرسل لنجدة صاحب الموصل؟ سؤال لم تجب عليه المصادر، ولكنه يلقي بظلال كثيفة على موقف بيبرس.

والمأمل في نتائج هذه المعركة يجد أن أسباباً متعددة قد تضافرت وأدت إلى هذه الهزيمة لجيش البرنلي الذي لم يصل إلى الموصل كما كان مقرراً، بل اضطر إلى القتال عند سنجار التي تقع على مقربة من الموصل. ولعل أول أسباب هذه الهزيمة وقوع رسالة البرنلي إلى الملك الصالح في يد القائد المغولي صندغون الذي استفاد من المعلومات الواردة فيها، والمعلومات التي أرسلها هولاًكو إليه عن ضالة عدد جيش البرنلي، فأرسل عشرة آلاف جندي لمقاتلة جند البرنلي التسعمائة. غير أن هبوب الريح التي ألقته بالرمال والحصى في عيون قوات البرنلي كان سبباً آخر أشد تأثيراً في التعجيل بهزيمة هذه القوات، إذ عجزت هذه القوات عن مواصلة القتال فقتل من قتل وفر من فر. ويبقى سبب آخر للهزيمة هو عدم التكافؤ بين الجيشين المغولي بقيادة صندغون، والشامي بقيادة البرنلي، من الناحية العددية. فأنى لتسعمائة من الجنود بمنازلة عشرة آلاف رجل من المقاتلين المغول الأشداء زود كل منهم بثلاثة خيول؟ إن هذا الموقف يعود بالباحث إلى

²¹⁷ رشيد الدين، ص ٣٢٩.

التساؤل الذي طرحه في الفقرة السابقة عن جيشي كل من شمس الدين سنقر الرومي وعلاء الدين الحاج طبيرس. ولا شك أن تأخر وصول هذين الجيشين، أو عدم وصولهما بالمرّة، كان من الأسباب التي حسمت التفوق العددي في المعركة لصالح جنود صندغون. وأخيراً، فقد يطرح سؤال عن دور مقاومة سكان مدينة سنجار في مواجهة المغول. وللاّنصاف فإن طول أمد حصار المغول لهذه المدينة، وقرار صندغون بالتخلي عن حصارها يأساً من الاستيلاء عليها هما خير دليل على بسالة وصمود أهل هذه المدينة. ولولا تشجيع مبعوث هولاء صندغون وطمأنته إلى ضالّة شأن جيش البرنلي، أو إرسال هولاء فعلاً لجيش لإمداد صندغون حسب رواية رشيد الدين، ووقوع رسالة البرنلي إلى الملك الصالح في يد القائد المغولي، لعاد المغول أدراجهم دون أن ينالوا من سنجار. بل إنهم عندما دخلوا المدينة ونالوا منها بعد هزيمتهم للبرنلي وجيشه، دخلوها بالخدعة وليس بالقتال فتكروا في ملابس الجنود الشاميين حتى اطمأن إليهم أهل المدينة وخرجوا، وظلوا يقاتلونهم طيلة ستة أشهر حتى انتشرت الأمراض وأجبرهم الجوع على الخروج إلى سيوف المغول. فلا مجال إذن للحديث عن غياب دور مقاومة المدينة للمغول.

وعقب انكسار آقوش البرنلي على هذا النحو، "ضاقت به البلاد، ولم يبق بيده سوى البيرة"²¹⁸ فعاد إليها وبصحبتة جماعة من الأمراء العزيرية والناصرية. وهناك فارقه أكثرهم وساروا إلى مصر²¹⁹. فتوالى وصولهم إليها وأحسن إليهم السلطان، "ولم يؤاخذ أحداً شيئاً مما جرى"²²⁰.

وما إن دخل آقوش البرنلي مدينة البيرة حتى وفد عليه مبعوثو إيلخان التتار هولاء وكان من بينهم ابن خاله وزين الدين قراجا الناصري أمير جاندار²²¹ وطلبوا من البرنلي السير

²¹⁸ أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ٢١٤. انظر أيضاً: Abou'l Feda, p. 148

²¹⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١؛ ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٨٨؛ العيني، ج ١، ص ٣٢٢؛ المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٧١.

²²⁰ ابن عبد الظاهر، ص ١٢٨ - ١٢٩؛ المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٧١

²²¹ "أمير جاندار" كلمة مركبة من ثلاثة ألفاظ "أمير" وهو عربي، "جان" ومعناه الروح بالفارسية، و"دار" ممسك الروح؛ والمراد به الحافظ لدم السلطان، فلا يأذن عليه إلا لمن يأمن عاقبته. وكانت مهمة

إلى هولاءكو "ليقطع له البلاد من جهته" لكنه رفض مطلبهم²²². والواقع أن رفض البرنلي لمطلب مبعوثي هولاءكو يمكن أن يحسب له من منظور الصراع الإسلامي المغولي، وإن كان يتناقض مع ما قاله من قبل للأمير بدر الدين بكتاشي الفخري حين حمل إليه رسالة من بيبرس لموادعته " أنا أعلم أن هولاءكو يفي، وأن السلطان لا يفي"²²³. وربما أراد البرنلي بقوله هذا مجرد التأكيد على عدم ثقته في وعود بيبرس.

وهكذا نجح التتار في اجتياح مدينة الموصل في رمضان سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م وقتلوا بقية سكانها بحد السيف، وأسروا بعضا من أرباب الحرف والصنائع بحيث لم يبق أحد فيها. فلما رحل التتار عنها، خرج ما يقرب من ألف شخص من بين الجبال والمغارات وتجمعوا²²⁴.

وبعد انتصار صندغون على شمس الدين آقوش البرنلي، عاد إلى الموصل، وأدخل بعض الأسرى من عسكر الأمير الشامي المهزوم من الثقوب إلى داخل مدينة الموصل ليعرفوا الملك الصالح إسماعيل بهزيمة حليفه الذي جاء لنجده، ويشيروا عليه بالدخول في طاعة التتار²²⁵، ووعدوه بعود حسنة. ونسي الصالح أن من عادة التتار النكت بعودهم. فبعد أن فتحت المدينة أبوابها، استباحوها. وفي أواخر شوال سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م عاد التتار إلى بلادهم وبصحبته الملك الصالح الذي قتل في الطريق قبل أن يمثل أمام هولاءكو²²⁶.

حامل هذا اللقب أن يستأذن على الأمراء وغيرهم في أيام المواكب عند الجلوس بدار العدل. ويطوف بالزفة حول السلطان في سفره. للتفاصيل انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩؛ ج ٥، ص

٤٦١. انظر أيضا: شافع بن علي، ص ٤٤.

²²² ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٨٨.

²²³ النويري، ج ٣٠، ص ٥٩.

²²⁴ رشيد الدين، ص ٣٣٠؛ الذهبي، ج ٢، ص ١٦٥.

²²⁵ ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٨٩.

²²⁶ للتفاصيل انظر: ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ٨٩ - ٩٠؛ ابن العيري، تاريخ الزمان، ص ٣٢٢؛ تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٤؛ ابن الفوطي، ص ١٦٧ - ١٦٨؛ المقريزي، السلوك، ج ١، ص

ومن الجدير بالتسجيل أن محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب ديوان الإنشاء في عهد السلطان الظاهر بيبرس وصاحب مصنف "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" والذي يعد المصدر الذي نقل عنه أكثر المؤرخين المسلمين المعاصرين وغير المعاصرين²²⁷ قد أهمل تتبع انتفاضة المتغلب على البلاد الشامية، وكان من الطبيعي أن يتحامل عليه بشدة، فسجل في مصدره أن أهل سنجار - بعد رحيله عنها بعيد هزيمته - صاروا "يدعون عليه لما فعله معهم من نهب الأموال وإخراب البيوت" بينما كان عليه، إذا كان يبتغي النصر على التتار - حسب ما أورده ابن عبد الظاهر - أن يطيب القلوب، ويبتهل بالأدعية، ويبسط العدل "ولا أفلح من ظلم، ولا نصر من دُعي عليه"²²⁸.

محاولات بيبرس ترويض البرنلي

عندما غادر البرنلي حلب على رأس جيشه لنجدة الملك الصالح أمير الموصل، تسلمها نواب علاء الدين البندقداري. ثم أصدر السلطان بيبرس مرسوما بتوجه علاء الدين إليها²²⁹. وأثناء إقامة البرنلي في البيرة، راسله السلطان الظاهر، وعرض عليه الدخول في طاعته، ووعده بالإحسان إلا أن المتغلب على البلاد الشامية رفض مطلب سيده.

٥٤٥؛ المفضل بن أبي الفضائل، ج ١، ص ٩٤. انظر أيضا: D'Ohsson, t. III, p. 374; Howorth, t. III, p 181.

²²⁷ قارن على سبيل المثال * ابن عبد الظاهر، ص ١٩٢ - ١٩٣، * مع النويري، ج ٣٠، ص ٨٨؛ ابن عبد الظاهر، ص ١٦٦ - ١٧٠ مع النويري، ج ٣٠، ص ٨٤ - ٨٧؛ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤ مع النويري، ج ٣٠، ص ٦٠ * ابن عبد الظاهر، ص ١٩٢، مع بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٠٥ * ابن عبد الظاهر، ص ٨١، مع شافع بن علي، ص ٤٦ * ابن عبد الظاهر، ص ١٩٣، مع المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥١٠ ابن عبد الظاهر، ص ١٩٤، مع المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥١١؛ ابن عبد الظاهر، ص ٢٧٢، مع المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٥ * ابن عبد الظاهر ص ٢٧٠، مع ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص ١٤٠ ح ابن عبد الظاهر، ص ٢٦٩ - ٢٧٠، مع ابن بهادر، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر - مخطوط بدار الكتب المصرية - رقم ٤٩٧٧ تاريخ - جزءان - ج ١، ورقة ١٠٩.

²²⁸ ابن عبد الظاهر، ص ١١٤

²²⁹ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١١٧ - ١١٨.

(وربما كان البرنلي يصدر في موقفه هذا عن شعور بالقوة لا نجد في المصادر ما يببره، خاصة وأن أكثر من كان معه من العزيزية والناصرية فارقوه وتوجهوا إلى ببيرس وربما بقيت معه قوات كبيرة من غير العزيزية والناصرية) فما كان من ببيرس إلا أن جهز جيشا لقتاله، وأسند قيادته للأمير جمال الدين المحمدي²³⁰. فسار إليه والتقى، وكان النصر حليف البرنلي. الذي تمكن من أسر المحمدي ومن معه. ولعل في انتصار البرنلي على جمال الدين المحمدي دليلا على قوة البرنلي العسكرية رغم انفضاض أكثر العزيزية والناصرية عنه. ومما يؤيد ذلك أيضا أن البرنلي أطلق سراح الأمراء وأنعم على كل واحد منهم فرسا واحدا، أما بقية الأجناد، فقد أطلقهم رجاله²³¹.

وعقب تلك الهزيمة التي علم بها ببيرس حين حضر إليه المهزومون "عدل عن مقاتلته إلى مخاتلته"²³². وهكذا تبدلت سياسة ببيرس القائمة على مقاتلة البرنلي إلى موادعته ومهادنته. وقد عبر عن ذلك العيني حين ذكر أن السلطان "أرسل إليه يعده الإحسان ويستجلبه بصوغ اللسان"²³³ بينما كان فيما مضى "... يرهبه، ويضيق عليه المجال"²³⁴ أصبح "يبسط له الآمال"²³⁵. وبالفعل طلب البرنلي الدخول في طاعة السلطان، فوافق على مطلبه فخرج من البيرة في ١٩ رمضان سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م²³⁶، وسار إلى دمشق، وأحسن إليه ببيرس، وأرسل إليه الأدوية اللازمة لعلاج الإصابة التي لحقت برجله أثناء قتاله التتار. كما سير إليه الأمير بدر الدين بكتاش، أمير سلاح²³⁷، حاملا

²³⁰ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٣، ترجمة جمال الدين المحمدي. وقد أوجز العيني تلك الأحداث بالقول "... كسرهم وسلبهم، وأرسلهم على تلك الحال". انظر: العيني، ج ١، ص ٣٥٩.

²³¹ العيني، ج ١، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

²³² العيني، ج ١، ص ٣٢٣.

²³³ العيني، ج ١، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

²³⁴ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٣ - ١٣٤.

²³⁵ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤.

²³⁶ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١. وأضاف أبو المحاسن أن البرنلي "اجتمع بالبندقاري نائب حلب بعد أن توثق كلاهما بالإيمان [وصحتها الأمان].

²³⁷ أمير سلاح" هو المكلف بحمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة، والمتحدث في السلاح خانة السلطانية وما يستعمل بها وما يقدم إليها ويطلق منها. ويأتي في المرتبة الخامسة بين الوظائف العسكرية

رسالة "وشافهه باليمين"²³⁸ وكلفه باستقباله²³⁹ ومن معه من الأمراء العزيزية حين وصولهم إلى القاهرة²⁴⁰ وأبدى اهتمامه العظيم به.

البرنلي في مصر

دخل الأمير شمس الدين آقوش البرنلي القاهرة، عاصمة سلطنة المماليك، في ثاني ذي الحجة سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م²⁴¹. وركب السلطان بيبرس لاستقباله أحسن استقبال "وسير إليه من المال والخلع والقماش والخيول والبيوتات شيئاً لعله يكون خزانة ملك"²⁴² وعامله معاملة كبار أمراء سلاطين المماليك²⁴³ كما أكرم السلطان كل من وصل معه من الأمراء العزيزية²⁴⁴ وغيرهم كلا على قدر منزلته²⁴⁵ وهكذا بفضل كرم السلطان بيبرس تحول

الكبرى في قصر السلطان المملوكي. ثم ارتقى حتى أصبح يلي أتاك العساكر مباشرة. وهو من أمراء المئين. انظر: ابن شداد، ص ٧٣، ح ٣. انظر أيضاً: أحمد عبد الرازق: الرنوك الإسلامية - القاهرة ٢٠٠١م - ص ٣٩.

²³⁸ النويري، ج ٣٠، ص ٥٩.

²³⁹ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤.

²⁴⁰ ابن عبد الظاهر: ص ١٣٤. وفي النويري "... ولما وصل إلى دمشق، كتب السلطان إلى النواب بخدمته وترتيب الإقامات له في جميع الطرقات والمنازل إلى أن يصل إلى القاهرة". انظر: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٥٩.

²⁴¹ في أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١: "ودخل البرنلي القاهرة في غرة ذي الحجة من السنة [أي سنة ٦٦٠هـ] بينما في ابن عبد الظاهر: ٣٤، والعيني ج ١، ص ٣٩٥، والنويري، ج ٣٠، ص ٦٠: "في ثاني ذي الحجة". بينما يؤخذ على المقرئ قوله "... وسار إلى القاهرة فدخلها أول ذي القعدة". انظر: المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٤٥. وقد صحح هذا الخطأ في مخطوطه "التاريخ المقفى" - مادة أقش البرلي - إذ أورد "... قدم القاهرة في ثاني ذي الحجة سنة ستين وستمئة".

²⁴² ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤؛ النويري، ج ٣٠، ص ٦٠.

²⁴³ في هذا المعنى يقول أبو المحاسن: ولم يترك شيئاً مما يحتاجه الأمراء إلا وسيره إليه". انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٣٤.

²⁴⁴ انفرد العيني بذكر الأمراء العزيزية. انظر: عقد الجمان، ج ١، ص ٣٥٩.

²⁴⁵ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤؛ العيني، ج ١، ص ٣٥٩.

البرنلي إلى أحد كبار الأثرياء حتى "فاض على غلمانه" على حد قول محيي الدين بن عبد الظاهر²⁴⁶.

ولم يكتف ببيبرس بما تقدم، بل أقطع البرنلي - بموجب منشور سلطاني - إمرة سبعين²⁴⁷ فارسا وأعطاه طبليخاناه، كذلك أمر الأمراء المصاحبين له وأحسن إليهم²⁴⁸.

وبعد استقرار أمور البرنلي بمصر، أرسل إلى السلطان كتابا يطلب فيه "زيادة في الشام [أي دمشق]، أو في نابلس، أو بلاد الصلت²⁴⁹، أو بلاد بعلبك، أو في حران، مقابل تنازله عن البيرة، لعدم قدرته على الاحتفاظ بها، فشكره ببيبرس ولم يقبلها منه إلا بعد تكرار طلبه، وعوضه عنها بالرها²⁵⁰ وغيرها²⁵¹، إذ قال السلطان للبرنلي في أول عرض له "أنا أرجو لك الزيادة"²⁵². ووصلت الصداقة الحميمة بين السلطان الظاهر والمتغلب على البلاد الشامية مداها بعد أن صار السلطان يقربه، وأصبح يرافقه إذا ركب، ويستشيريه في مجالسه "ولسانه إذا قال، ويده إذا صال، وساهمه في كل شئ حتى فيما يكون بين يديه مما

²⁴⁶ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤.

²⁴⁷ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١؛ المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٤٥. وفي ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤، والنويري، ج ٣٠، ص ٦٠، الذي نقل عنه نقلا حرفيا "كتب له منشورا بستين فارسا". كذلك العيني، ج ١، ص ٣٥٩، الذي أورد: "ولما وصل [أي البرنلي] أعطاه ستين فارسا".

²⁴⁸ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤؛ النويري، ج ٣، ص ٦٠؛ ابن شداد، ص ٢٨٧.

²⁴⁹ تقع "الصلت" مقابل أريحا على غور الأردن، جنوبي عجلون. انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان - نشره رينو ودي سلان - باريس ١٨٤٠، ص ٢٤٥.

²⁵⁰ الرها مدينة بالجزيرة فوق حران، بينهما ست فراسخ. قيل اسمها بالرومية إداسا Edessa، البغدادي، ج ٢، ص ٦٤٤.

²⁵¹ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤. وقد نقل عنه كل من النويري، ج ٣٠، ص ٦٠؛ والعيني (بتلخيص) ج ١، ص ٣٥٩.

²⁵² ابن عبد الظاهر: ص ١٣٤؛ النويري: ج ٣٠ ص ٦٠ نقلا عن ابن عبد الظاهر.

يستظرف". ووصلت الصداقة الحميمة بين السلطان وأميره مداها حتى أصبح "لا يفارقه في صيد ولا غيره"²⁵³

انقلاب البرنلي على بيبرس واعتقال بيبرس له

ولكن الأمير شمس الدين أقوش البرنلي لم يحفظ هذا الجميل والإحسان من جانب بيبرس. فقد حدث آنذاك أن سافر السلطان الظاهر إلى الطور²⁵⁴ فاصطحبه معه، وكان السلطان يفتقده طول الطريق بأنواع الإحسان²⁵⁵. ومع ذلك فإن هذا الأمير المتمرّد لم يعرف حداً لطموحاته وذلك رغم هزيمته أمام التتار التي لم يكن قد ضمّد جراحه منها بعد. إذ يذكر أبو المحاسن أنه "اتفق مع جماعة أن يملكوه" فكان ذلك أعظم الدواعي إلى القبض عليه مع أمور أخر... وقيل أنه سجن بقلعة الجبل²⁵⁶ وكان ذلك في ١٩ رجب سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م²⁵⁷.

²⁵³ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٤؛ النويري، ج ٣٠، ص ٣٠ نقلا عن ابن عبد الظاهر. وقد أوجز كل من العيني وبيبرس الدوادار ما أورده ابن عبد الظاهر في الآتي "... وقربه وأدناه، واتخذة سميرا وأنيسا ونديما". فكان بارعا في إيجازه. انظر: العيني، ج ١ ص ٣٥٩؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٩٤.

²⁵⁴ "الطور" جبل مطل على طبرية الأردن، البغدادي، ج ٢، ص ٨٩٦.

²⁵⁵ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٥؛ النويري، ج ٣٠، ص ٦٠.

²⁵⁶ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١. وفي العيني، ج ١، ص ٣٥٩: "قبض عليه ثاني يوم دخوله القاهرة من سفر الكرك والطور. وقلعة الجبل" مقر السلطان، بناها الطواشي بهاء الدين قراقوش للملك صلاح الدين بن ايوب. للتفاصيل انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٦٨ - ٣٧٠.

²⁵⁷ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٥٧؛ التاريخ الكبير المقفى - مادة أقش البرنلي، أحداث ٦٦١هـ. واكتفت مصادر أخرى بذكر إلقاء القبض عليه "في شهر رجب سنة إحدى وستين". دون تحديد اليوم.

انظر: ابن عبد الظاهر: ص ١٣٥؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٤؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٨؛ العيني، ج ١، ص ٣٦٠؛ وفي أبي المحاسن: "... في يوم السبت سادس عشر شهر رجب، لما دخل [الملك الظاهر] القاهرة قبض على الأمير بلبان الرشيدى وأبيك الدمياطي وأقوش البرنلي". انظر: أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١٢٠. بينما لم يحدد أبو المحاسن إلا سنة القبض عليه (أي سنة ٦٦١هـ) في المنهل، ج ٣، ص ٢١.

ورغم خيانتها، فقد أحسن بيبرس إلى أهله وأولاده، وقرر لهم الرواتب، واستمر بإقطاعهم في مصر²⁵⁸. والملاحظ أن محيي الدين بن عبد الظاهر زودنا بتفاصيل أكثر مما أورده أبو المحاسن بن تغري بدري، إذ ذكر تحت عنوان "ذكر السبب في إمساك الأمراء الرشيدي، والبرلي، والدمياطي" أن السلطان الظاهر بيبرس كان قد فوض أمر المملكة أثناء غيابه إلى الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي الصالحي "فأقبل على اللهو وشرب الخمر وحمت حواشيه عدة بلاد، وحدثت منه أمور لا تسر...."²⁵⁹ فتغاضى السلطان عن ذلك²⁶⁰، إلا أن بيبرس بلغه أن الرشيدي كتب إلى الملك المغيث ملك الكرك كتابا يقول له فيه "لا تحضر إلى السلطان فإنه يريد أن يمسك"²⁶¹. وبعد ذلك أرسل الرشيدي إلى أهل الكرك²⁶² كتابا يقول لهم فيه أنه "يحسن لهم التوقف عن التسليم ويعرض عليهم الاتفاق معهم على أن يحضر إليهم هو ويتسلمها، ويحفظها لهم، ويكون هو عوناً لهم، ويتفق معهم على إفساد الحال كله"²⁶³ وكان كتابه هذا بعد تمكن بيبرس من إلقاء القبض على الملك المغيث²⁶⁴.

أمام أطماع الرشيدي في الاستيلاء على الكرك ومناصرة كل من الأمير شمس الدين آقوش البرنلي والأمير عز الدين الدمياطي له كان من الطبيعي أن يتحرك بيبرس لإفشال هذا المخطط الانفصالي الذي يحرص أهل الكرك على الثورة على السلطان والامتناع عن تسليمه مدينتهم خاصة وأن الرشيدي قد عبأ "ثلاثمائة فارس من مماليكه، والدمياطي والبرنلي"²⁶⁵ ومن اللافت للنظر أن هذه المؤامرة جمعت بين البرنلي ورجلين سبق

²⁵⁸ ابن عبد الظاهر، ص ١٣٥، ١٧٠؛ النويري، ج ٣٠، ص ٨٧؛ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٥٧.

²⁵⁹ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٥٧؛ ابن عبد الظاهر، ص ١٦٦؛ النويري، ج ٣٠، ص ٨٤.

²⁶⁰ ابن عبد الظاهر، ص ١٦٦.

²⁶¹ ابن عبد الظاهر، ص ١٦٧؛ النويري، ج ٣٠، ص ٨٥.

²⁶² "الكرك" قلعة حصينة في طرف الشام، من نواحي البلقاء في جبالها. تقع بين أبلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على جبل عال. البغدادي، ج ٣، ص ١١٥٩.

²⁶³ ابن عبد الظاهر، ص ١٦٧؛ النويري، ج ٣٠، ص ٨٥؛ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٥٨.

²⁶⁴ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٥٨.

²⁶⁵ ابن عبد الظاهر، ص ١٦٨؛ النويري، ج ٣٠، ص ٨٦.

لبيرس أن أرسلهما لقمع تمرده ومحاولته التغلب على حلب هما بلبان الرشيدي وعز الدين الدمياطي. فهكذا كان شأن المماليك دائما. فما كان أسهل أن يتحول أعداء الأمس إلى أصدقاء اليوم ورائدهم في ذلك جميعا المصلحة الشخصية ولا شيء سواها وتؤكد السلطان من مؤامرة الرشيدي حين استدعى الأمير شمس الدين سنقر الرومي وسأله: "ما الذي رأيت؟" فقال: "جماعة ما جاءوا في خير"²⁶⁶. وحدث أن اقترب الرشيدي من السلطان الظاهر وكان مكانا غير مخصص له وبالقرب منه وقف الدمياطي، والبرنلي. إلا أن الأمير عز الدين أوغان الركني²⁶⁷ نجح في تفريقهم بطريقة مازحة²⁶⁸. وقد انفرد شافع بن علي بذكر أن هدف تحالف الأمراء الثلاثة كان اغتيال السلطان الظاهر ببيرس، وكان توقيت عملية الاغتيال وقت صلاة الصبح وكان "هو [أي الرشيدي] والدمياطي والبرلي في جماعة كبيرة" لكن المؤامرة فشلت²⁶⁹. وهكذا تأكد السلطان الظاهر ببيرس من المؤامرة التي ضمت الأمراء الثلاثة، كما شعر أيضا بضعف طاعتهم له وتحريضهم الآخرين عليه. وقمعا لتلك الحركة الانفصالية التي استهدفت أيضا تصفيته جسديا، استدعى السلطان الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي واعتقله. وفي اليوم التالي أمسك بالأمير عز الدين الدمياطي والأمير شمس الدين آقوش البرنلي²⁷⁰

وأمضى المتغلب على البلاد الشامية بقية حياته سجيناً إلى أن توفي سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، ودفنت معه أحلامه وطموحاته التي لم يكن يحدها شيء. فمشاركته في

²⁶⁶ النويري، ج ٣٠، ص ٨٦.

²⁶⁷ عز الدين أوغان الركني "سم الموت": أيفان بن عبد الله الركني، الأمير عز الدين، أصله من ممالك ركن الدين ببيرس، كسر الفرنجة بغزة، وصار له الكلمة النافذة والحرمة الزائدة، ودام على ذلك مدة طويلة إلى أن بلغ الملك الظاهر عنهما أوغر خاطره عليه فأمسكه وحبسه بالقلعة. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨٧ و ٥٣٩؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ٤٠٦.

²⁶⁸ ابن عبد الظاهر، ص ١٦٨ - ١٦٩؛ النويري، ج ٣٠، ص ٨٦.

²⁶⁹ شافع بن علي، ص ٦٣.

²⁷⁰ ابن عبد الظاهر، ص ١٦٨ - ١٧٠؛ النويري، ج ٣٠، ص ٨٦ - ٨٧؛ شافع بن علي، ص ٦٢؛ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١٢٠. والملاحظ أن النويري نقل عن محيي الدين بن عبد الظاهر أحداث تلك المؤامرة الثلاثية. قارن: الروض الزاهر، ص ١٦٦ - ١٧٠. مع نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٨٤-٨٧.

مؤامرة اغتيال السلطان بيبرس والتي أكدها المؤرخ المعاصر شافع بن علي²⁷¹ ابن أخت محيي الدين بن عبد الظاهر، وكذا أبو المحاسن بن تغري بردي²⁷² تؤكد تخطيطه للتربع على عرش سلطنة المماليك في مصر والشام²⁷³. ولم لا، وقانون الترك - أي المماليك - يقضي بأن "من قتل الملك كان هو الملك"²⁷⁴. وكان الظاهر بيبرس أول من طبق هذا القانون في عهد سلطنة المماليك البحرية عندما اغتال قطز.

تحليل شخصية البرنلي في ضوء الواقع التاريخي

تشكل الأحداث التي عرض لها الباحث فيما سبق - في مجموعها - إطارا عاما لصورة الأمير شمس الدين آقوش البرنلي يمكن من خلاله رصد الملامح الرئيسية لهذه الشخصية الفريدة في طموحها الذي لم يعرف الكلال إلى التملك ونزوعها الفطري إلى السلطة. ونعرض فيما يلي لأهم هذه الملامح.

البرنلي وطبيعة العصر:

عاش الأمير شمس الدين آقوش البرنلي في فترة فاصلة بين عصرين من أهم عصور التاريخ الإسلامي: عصر أيوبي أذن نجمه بأفول، وعصر مملوكي لاحت بشائره في سماء الشرق الإسلامي، وذلك قرب نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري التي وافقت نهاية النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي.

أما العصر الأيوبي فقد كان عصر انقسام وحروب لا تنتهي بين خلفاء الناصر صلاح الدين مؤسس الأسرة²⁷⁵. وكانت السمة الغالبة على ذلك العصر هي الإكثار من شراء المماليك وتدريبهم ليكونوا عدة وسندا لأمرء بني أيوب الذين اتخذوا ألقاب الملوك في

²⁷¹ شافع بن علي، ص ٦٣.

²⁷² أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

²⁷³ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٤، ٢١؛ شافع بن علي، ص ٦٣.

²⁷⁴ شافع بن علي، ص ٣٢.

²⁷⁵ انظر سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ١٩٣.

البلدان الكثيرة التي كانوا يحكمونها.²⁷⁶ وكان لابد والحال كذلك أن تزداد قوة المماليك ويزداد نفوذهم. وكانت طبيعة ذلك العصر في حد ذاتها رسالة موجهة إلى المماليك من أمثال شمس الدين أقوش البرنلي الذي فهم الرسالة تماما واستوعب مضمونها كل الاستيعاب. كيف لا وهو الرجل الذي أثبتت الحوادث دوما أنه رجل ذكي شديد الذكاء، طموح شديد التطلع إلى الأعلى، قوي، واثق من نفسه، معتد بها كل الاعتداد.

وأما العصر المملوكي، فقد كانت الحوادث الدامية العنيفة التي اكتتفت بداياته الأولى - وتحديدا: السنوات العشر الأولى من ذلك العصر من سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م إلى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م - من مقتل السلطان تورانشاه على يد المماليك البحرية، ومقتل فارس الدين أقطاي على يد عز الدين أيك، ثم مقتل عز الدين أيك على يد غلمان زوجته شجر الدر، ومقتل شجر الدر نفسها على يد خدم ضررتها زوجة عز الدين أيك، وأخيرا مقتل قطز على يد بيبرس البندقداري، كانت كل هذه الحوادث الدامية رسالة أخرى إلى أمثال شمس الدين البرنلي عن طبيعة النظام الوليد في مصر المملوكية ودليل عمل للتعامل مع معطيائه. وفهم البرنلي الرسالة أيضا.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن هذا الذي كان من "أكابر ممالك" العزيز غياث الدين²⁷⁷، والذي عاش قرابة ثلاثين سنة أو يزيد في بلاط العزيز ثم بلاط ابنه الناصر²⁷⁸، وعرف بما جرى من أحداث في مصر عقب مقتل معظم تورانشاه، بل وشارك في هذه الأحداث فعلا²⁷⁹، قد فطن إلى طبيعة عصره، وأدرك تماما أن بمقدوره الفوز بما تطمح إليه نفس كل من كان على شاكلته من ممالك كانت تموج بهم المنطقة آنذاك، وأن يتخذ لنفسه مكانا بين الأقوياء، رائده في ذلك طموح لا يحد ونفس لا تقنع، وعقل شديد الذكاء، وسيبله إلى ذلك التمرد على كل سيد، والخروج على كل سلطان والتملص من أي شكل من

²⁷⁶ المرجع السابق، ص ١٩٤.

²⁷⁷ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٤.

²⁷⁸ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

²⁷⁹ بخروجه مع الناصر لقتال المصريين، الحاشية السابقة.

أشكال التبعية، ويشهد بذلك خروجه على الناصر في موقعة العباسة²⁸⁰، ثم تأمره علي قتل عز الدين أيبك الذي عاش في كنفه خمس سنوات في مصر²⁸¹، وتخليه للمرة الثانية عن الناصر الذي أخرج من السجن في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م ليستعين به في مواجهة المغول²⁸² وانضمامه إلى قطز²⁸³، ثم خروجه على بيبرس وتغلبه على حلب رغم إحسان بيبرس إليه²⁸⁴، وأخيرا انقلابه على بيبرس وتأمره مع سيف الدين الرشيدى وعز الدين الدمياطي على قتل بيبرس الذي بالغ في الإحسان إليه وإكرامه بل ومصادقته²⁸⁵.

هذا هو البرنلي إذن باختصار: مملوك طموح ، متمرد، شديد الذكاء، دائم السعي إلى التغلب والتملك ما وجد إلى ذلك سبيلا.

البرنلي الثائر الطموح:

غير أن طريق شمس الدين البرنلي إلى تحقيق طموحاته لم يكن معبدا في أي وقت من الأوقات، خاصة وأن محور هذه الطموحات كان واحدة من أهم مدن الشام وهي حلب. وللبرنلي مع حلب قصة طويلة من الكر والفر، والتغلب عليها والخروج منها أمام قوات بيبرس. والمتابع لهذه الأحداث لا بد وأن يخرج بنتيجة مؤداها أن نيابة حلب كانت حلما طالما راود شمس الدين آقوش البرنلي الذي عاش الجزء الأكبر من حياته بين ربوعها وفي بلاط سلاطينها.

والواقع أن البرنلي لم يأل جهدا، ولم يدخر وسعا لتحقيق طموحه الكبير في أن يصبح نائبا معترفا به على حلب من قبل السلطان الشرعي للبلاد ، وهو ركن الدين بيبرس

²⁸⁰ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

²⁸¹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

²⁸² أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

²⁸³ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥١٨.

²⁸⁴ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧.

²⁸⁵ أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ١١٧-١١٨.

البندقداري، الذي وصل إلى السلطنة باغتياله سيف الدين قطز²⁸⁶ رفيقه وقائده في محاربة المغول والسلطان الشرعي لبلاد. فقد حشد البرنلي كل إمكانياته من الدهاء والقوة والتآمر والدبلوماسية لتحقيق هدفه.

وترجع البدايات الأولى لمحاولة البرنلي التملك أو التغلب إلى زمن إقامته في دمشق التي نجح في استردادها من علم الدين سنجر وإعادتها إلى حظيرة الدولة المملوكية وسلطانها بيبرس²⁸⁷. فخروجه المريب منها هاربا في غسق الليل مع ثلة من المماليك²⁸⁸ يوحي بأنه قد تآمر فعلا على بيبرس بعد أن حظي بثقتة، خاصة وأن خروجه من دمشق جاء في أعقاب القبض على بهاء الدين بغدي الأشرفي²⁸⁹، وكأنما يصدق عليه قول الفائل "يكاد المريب أن يقول خذوني".

وإذ تأكد للبرنلي أن التآمر وحده ليس يجدي، لجأ إلى القوة، ولكن يبدو أن تلك الشردمة من المماليك الذين خرجوا معه من دمشق لم تكن كافية لتنفيذ مشروعه الكبير في التملك أو التغلب على مدينة كبيرة لم يفصح عن كنهها حتى الآن، فخرج يستعدي صاحبي حمص وحماة على بيبرس ويشجعهما على الانضمام إليه في ثورته²⁹⁰. ولما لم يجد منهما آذانا صاغية توجه إلى حلب بما معه من قوة يسيرة ووضع يده على بعض مؤننها²⁹¹ في أول إشارة إلى رغبته في التغلب على هذه المدينة المهمة. ولكن تلك القوة

²⁸⁶ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥١٩.

²⁸⁷ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٠؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ العيني، ج ١، ص ٢٩١، وعن علاء الدين البندقداري انظر: أبو المحاسن، النجوم، ج ٧، ص ٩٤ - ٩٥.

²⁸⁸ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٠؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ العيني، ج ١، ص ٢٩٢. انظر أيضا: Abou'l Feda, p.146

²⁸⁹ أبو الفداء، ج ٣، ص ٢١٠؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ العيني، ج ١، ص ٢٩١؛ ابن أيبك، الدرّة الزكية، ص ٧٢؛ ابن عبد الظاهر، ص ٩٧.

²⁹⁰ العيني، ج ١، ص ٢٩٢.

²⁹¹ العيني، ج ١، ص ٢٩٢؛ أبو الفداء، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ ابن عبد الظاهر: ص ٩٧.

اليسيرة ألحقت الهزيمة بقوات علم الدين سنجر الذي كلفه ببيرس بقمع تمرد البرنلي²⁹². وكانت هذه هي المواجهة العسكرية الأولى بين البرنلي وقوات ببيرس.

الدهاء

جنى البرنلي الثمرة الحلوة التي كان يحلم بها فتوجه إلى حلب ليتغلب عليها. غير أنه واجه عقبة يسيرة تمثلت في وجود الأمير فخر الدين أيدمر الحلبي الحمصي في حلب على رأس جيش أرسله ببيرس لمواجهة غزو التتار²⁹³. ويبدو أن التفوق العددي كان في صالح الأمير فخر الدين، فتخلّى البرنلي عن سياسة القوة، ولجأ إلى سياسة المكر والدهاء. فأقنع فخر الدين بالخروج من حلب والذهاب إلى ببيرس للتوسط لديه حتى يعينه، أي البرنلي، نائباً على حلب²⁹⁴. وبمجرد خروج فخر الدين من المدينة بسط البرنلي سيادته عليها²⁹⁵. وكما نجحت القوة العسكرية مع علم الدين سنجر، نجح المكر والدهاء مع فخر الدين الحمصي. وبات البرنلي متغلباً على حلب وعرف في التاريخ بهذا الاسم. وهكذا زواج البرنلي بين القوة والدهاء والثورة والدبلوماسية حتى تحقق له ما كان يطمح إليه.

أصبح البرنلي إذن الأمر النهائي في حلب، وازداد قوة فازداد غرورا، ومن بعد حلب استولى على البيرة، ثم على حران، وصار يقرب من حلب ويبعد عنها خوفاً من السلطان فيما يروي المقرئزي²⁹⁶. وفي ذلك إشارة واضحة إلى الفرق بين الملك والتملك. فهو لم يملك المدينة بأمر سلطاني، ولم يعين نائباً عليها من قبل ببيرس، بل هو مجرد مغامر استولى على حلب قهراً، بالقوة والخديعة، وبسط سيادته عليها وفرض سطوته فيها دون

²⁹² النويري، ج ٣٠، ص ٤٤، ابن عبد الظاهر، ص ١١٣.

²⁹³ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٧؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥.

²⁹⁴ العيني، ج ١، ص ٢٩٢؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٠؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ اليونيني، ج ٢، ص ١٠٤ - ١٠٥. الدرّة الزكية، ص ٧٢، انظر أيضاً: Abou'l Feda, p. 148

²⁹⁵ العيني، ج ١، ص ٢٩٣؛ أبو الفداء، ج ٣، ص ٢١١، ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥.

²⁹⁶ المقرئزي، السلوك، ج ١ ص ٥٣٩.

سند شرعي. ومن هنا جاء إحساسه بهشاشة موقفه. فنراه في كل مناسبة يظهر الخضوع للسلطان ويرسل الرسل والوسطاء يستعطف بيبرس حتى يوافق على تعيينه نائبا له على حلب²⁹⁷.

ومن الغريب أن الضعف الذي كان البرنلي يظهره تجاه بيبرس كان دائما يكتسي ثوب القوة رغم حرصه الدائم على أن يظهر وهو في أوج قوته بمظهر المملوك الضعيف تجاه بيبرس. فكأنه كان يدرك بذكائه أن لقوته حدودا لا تتجاوزها، ولكنه كان مع ذلك يخاطب السلطان دائما من مركز قوة. فهاهو بعد انتصاره على قوات علم الدين سنجر واحتياله على فخر الدين الحمصي يلتمس من السلطان أن يعينه نائبا على حلب وهو متغلب عليها فعل²⁹⁸. ويتكرر المشهد عندما يخرج من حلب عند اقتراب القوة الضاربة التي أرسلها بيبرس لقمعه تحت قيادة جمال الدين آقوش المحمدي، وعز الدين الدمياطي، وفخر الدين الحمصي. فهاهو الثائر المطارد يدخل على المحمدي في خيمته ويطلب منه أن يستعطف بيبرس ليبقيه نائبا على حران. فكيف لقائد مهزوم ومطارد أن يتحدث بهذه الثقة مع خصمه بل ويهدد باللجوء إلى المغول إن لم يكن يشعر أنه في مركز قوة؟ ولكنه مع ذلك لا يتخلى عن سياسة الدهاء والتملق والدبلوماسية فيستعطف بيبرس²⁹⁹. وكما فعل مع فخر الدين الحمصي فأخرجه بالحيلة من حلب وتغلب عليها، أقنع المحمدي الذي كان يجد في أثره ويطرده من كل مكان ينزل فيه بأن يتوسط له عند بيبرس، وما أن يرجع المحمدي إلى بيبرس حتى يستولي البرنلي على حران دون انتظار موافقة السلطان³⁰⁰.

طبيعة الصراع بين البرنلي وبيبرس

وتصل الأمور بين البرنلي وبيبرس إلى منعطف خطير يسيطر على موقف الرجلين فيه مزيج من الخوف والرجاء ويلجم كلا منهما شك شديد في نوايا الآخر. فالبرنلي يخشى أن

²⁹⁷ ابن عبد الظاهر: ١١٣ - ١١٤؛ اليونيني، ج ٢، ص ١٥٢؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٥.

²⁹⁸ انظر الحاشية السابقة.

²⁹⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨.

³⁰⁰ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨؛ اليونيني: ج ٢، ص ١٠٥؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص

يقبض عليه بيبرس ويعتقله عقابا على محاولاته التملك والاستقلال. وبيبرس يخشى أن يمتد خطر البرنلي إلى النيابات الشامية الأخرى التي قد تشجعه على الانفصال عن دولة المماليك البحرية بمصر. وكلاهما يحدوه الرجاء في الفوز ببغيته: النيابة مع الخضوع الاسمي للسلطان الشرعي من جانب البرنلي؛ والإخضاع وقمع حركات التمرد التي واجهت بيبرس في مستهل حكمه والاطمئنان إلى عدم خروج البلاد الشامية عن السلطة المركزية للمماليك في مصر من جانب بيبرس. والرجلان من أكابر المماليك، هذا في بلاد الشام وذلك في مصر. وإذا كان الحظ - أو قانون القوة السائد والمتعارف عليه بين المماليك - قد ساعد بيبرس في التربع على عرش السلطنة، فقد كان من حق البرنلي من المنطلق نفسه - اعتمادا على الحظ أو العرف - أن يطمح إلى التملك بل وإلى السلطنة ذاتها. ولكن الرجلين وصلا إلى ما وصلا إليه بالخديعة والقوة وفرض الأمر الواقع. وكان من الطبيعي أن يتشكك كل منهما في نوايا الآخر.

وتعددت الرسائل والمكاتبات بين البرنلي وبيبرس ، هذا يلتمس ويستعطف وهو ما زال متغلبا على حران والبيرة متجها إلى حلب³⁰¹، وذلك يرغبه ويعطيه العهود والمواثيق على الوفاء³⁰² دون أن يثق أحدهما في صدق نوايا الآخر. ويعود البرنلي إلى التآمر، فيما يبدو، إذ يخرج عن طاعة علم الدين سنجر نائب حلب أكثر من كان معه وينضمون إلى البرنلي³⁰³ الذي يرسل من يتسلم المدينة من هؤلاء³⁰⁴.

المواجهة العسكرية الأخيرة والاعتراف بالأمر الواقع

هنا كان لابد من عمل عسكري كبير يحسم المسألة. فخرج بيبرس بنفسه على رأس قواته ودخل دمشق، وأرسل قائده بلبان الرشيدي لمقاتلة البرنلي³⁰⁵. وما حدث بعد ذلك كان غريبا. ومصدر الغرابة هنا يتمثل في واقعتين أثبتتهما المؤرخون هما:

³⁰¹ ابن عبد الظاهر، ص ١١٣.

³⁰² النويري، ج ٣٠، ص ٥٩.

³⁰³ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٣٧؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨.

³⁰⁴ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨؛ العيني، ج ١، ص ٣١٠.

³⁰⁵ ابن كثير، ج ١٣، ص ٢٣٣؛ العيني، ج ١، ص ٣١١.

أولاً: أن بيبيرس لم يتعلم الدرس الذي لفته له البرنلي عندما خدع جمال الدين آقوش المحمدي الذي أرسله بيبيرس لقمع تمردده. فكما خرج البرنلي من حلب عند اقتراب جمال الدين آقوش المحمدي، ومطاردته إياه، وبسط البرنلي سيادته على حران بالخدعة³⁰⁶، خرج البرنلي أيضا من حلب عند اقتراب جيش بلبان الرشيدي وطارده الرشيدي حتى أخرجه من حران أيضا³⁰⁷. ولكن لأسباب لم تذكرها المصادر عاد الرشيدي إلى مصر، كما أن المصادر لا تذكر شيئا عما كان من أمر قوات عز الدين الدمياطي وفخر الدين أيدير التي أرسلها بيبيرس مع الرشيدي، وكأنما مهمته كانت تنحصر في طرد البرنلي من حلب دون استراتيجية واضحة للحيلولة دون عودته للتغلب عليها، وهو ما حدث فعلا إذ عاد البرنلي إلى البيرة وبعث جماعة إلى حلب ففر منها نائبها علاء الدين البندقاري ودخلها البرنلي³⁰⁸. فنحن هنا أمام صورة تتكرر بحذافيرها إن دلت على شيء فإنما تدل على التكتيك العسكري الذي كان يستخدمه البرنلي وهو تكتيك الكر والفر، والخداع والقدرة على الإقناع. كما أن في ذلك دلالة واضحة على قوة البرنلي وإصراره على تحقيق هدفه.

ثانياً: أن قوة البرنلي كانت لا يستهان بها. والدليل على ذلك استيلاؤه عنوة على قلعة القرادي من المغول³⁰⁹؛ بينما الرشيدي يجد في أثره ويطرده من حلب ثم من حران. فكيف للهارب المطارد أن يهاجم قلعة ويأخذها عنوة؟ وما حجم القوة اللازمة للاستيلاء على قلعة من المغول؟ إن المعنى الوحيد لذلك هو أن البرنلي كان على درجة من القوة تكفي لشن مثل هذا الهجوم. ويذكرنا هذا بما كان من أمر دخول البرنلي علي المحمدي في خيمته وحديثه معه حديث القائد القوي، رغم طلبه توسط المحمدي لدي بيبيرس³¹⁰.

³⁰⁶ العيني، ج ١، ص ٢٩٢؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٠؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١١؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٥؛ اليونيني، ج ٢، ص ١٠٤ - ١٠٥. انظر أيضا: Abou'l Feda, p. 148.

³⁰⁷ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٩.

³⁰⁸ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠.

³⁰⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٩.

³¹⁰ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨.

فالبرنلي لا يظهر قط في أي من المصادر التاريخية بمظهر الرجل الضعيف أو القائد المهزوم رغم تظاهره بالضعف للحصول على نيابة حلب أو غيرها.

هل كان البرنلي حريصا على الشرعية في الملك؟

تغلب البرنلي على حلب أذن. ولكنه أبى إلا أن يظهر دائما أمام السلطان بمظهر المملوك الضعيف الذي يلتمس رضاه ويعتذر عن تغلبه على حلب. فهو يدرك حدود قوته ولا يطلب إلا أن يكون نائباً من نواب بيبرس وإن كان ذلك لا ينفي أنه كان يتطلع إلى السلطنة بدليل تأمره فيما بعد مع سيف الدين الرشيد وعز الدين الدمياطي على قتل بيبرس وتمليك البرنلي.

براعة البرنلي في استغلال الفرصة

والبرنلي إلى ذلك رجل تعلم كيف ينتهز كل فرصة تسنح له لإثبات وجوده وترسيخ صورته في الأذهان كحاكم قوي له قدره. فعندما بايع بيبرس الأمير العباسي أبا القاسم أحمد خليفة للمسلمين بالقاهرة ولقبه بالمستنصر وسط مظاهر من الحفاوة والأبهة بغية توطيد أركان مملكته وإضفاء الطابع الشرعي على حكمه³¹¹، سارع البرنلي بمبايعة أبي العباس أحمد خليفة ولقبه بالحاكم بأمر الله³¹². صحيح أن مبايعة الحاكم هذا كانت أشبه بصورة باهتة لما جرى في مصر من مبايعة المستنصر، بدليل تنازل الحاكم عن الخلافة للمستنصر طواعية، ولكنها تنطوي على دلالة لا تخطئها العين تؤكد أن البرنلي إنما أراد بذلك إثبات وجوده من ناحية، واكتساب الشرعية لحكمه من هذا الخليفة الذي بايعه من ناحية أخرى.

وكانت الفرصة الثانية التي سارع البرنلي بانتهازها لتدعيم أسس مملكته هي استتجاد صاحب الموصل به لمواجهة المغول³¹³. ومرة أخرى يجمع البرنلي بين الدبلوماسية

³¹¹ النويري، ج ٢٨، ص ١٨؛ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٤٥٣ - ٤٥٧؛ الذهبي، ج ٢، ص

١٦٥، انظر أيضا: العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٨٤.

³¹² الذهبي، ج ٢، ص ١٦٥.

³¹³ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠.

والقوة ليثبت وجوده على الساحة . فهو يستأذن ببيرس قبل الخروج إلى الموصل³¹⁴، ولكنه لا يلتزم بأوامره التي تقضي بانتظار وصول القوات السلطانية من مصر والشام³¹⁵. وقد يبرر ذلك بخوفه من أن تقبض عليه هذه القوات، ولكنه يثبت أيضا شجاعته في مواجهة المغول الذين كان اسمهم يبعث الرعب في القلوب، ولولا معرفة المغول بالصدفة باقترابه³¹⁶، وهبوب الرياح التي ألقّت بالرمال في وجه جنوده³¹⁷، فربما كان للبرنلي شأن آخر في حال انتصاره عليهم في هذه المعركة.

موقف البرنلي البطولي تجاه المغول:

كان للمغول دور بارز في حياة البرنلي. فقد كان خروجه مع سيف الدين قطز لقتال المغول في موقعة عين جالوت³¹⁸، وانتصار قطز الباهر في هذه الموقعة، سببا في تولي البرنلي إمارة غزة والبلاد الساحلية، مكافأة له³¹⁹. وكانت هذه هي أول إمارة يتولاها البرنلي منذ خروجه مع الناصر الأيوبي لمحاربة المصريين في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م. وربما كانت تلك الإمارة هي التي فتحت شهيته وفجرت طموحاته إلى التملك.

كما كان انكساره أمام قوات المغول في سنجار³²⁰ سببا في تخليه عن مشروعه الطموح للتغلب على حلب، بل وضياع حلب من يده نهائيا. والسبب في ذلك - في تقدير الباحث - فقدان البرنلي لجزء كبير من قواته في سنجار، وتخلي جزء آخر من العزيزية والصالحية عنه وتوجههم إلى مصر، بالإضافة إلى أن ببيرس كان قد عين علاء الدين البندقداري

³¹⁴ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠؛ النويري، ج ٣٠، ص ٤٥؛ ابن عبد الظاهر، ١١٤. هذا بينما أورد ابن الفوطي أن ببيرس أرسل إلى الملك الصالح لنصرته "أميرا" اسمه ايلبرك في جماعة". انظر: ابن الفوطي، ص ١٦٧.

³¹⁵ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢٠.

³¹⁶ رشيد الدين، م ٢، ج ١، ص ٣٢٨ - ٣٢٩؛ ابن الفوطي، ص، ١٦٧.

³¹⁷ رشيد الدين، م ٢، ج ١، ص ٣٢٩.

³¹⁸ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥١٨.

³¹⁹ أبو الفداء، ج ٣، ص ٢٠٦؛ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥١٨؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص

١٦؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٢ - ٢٠٣؛ ابن شداد، ص ٣٩، ج ١.

³²⁰ تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٤.

نائباً على حلب بعد خروج البرنلي منها متوجهاً إلى الموصل. وبين مقاتلة البرنلي للمغول في عين جالوت ومكافأته بإمارة غزة والساحل، ومقاتلته لهم في سنجار وضياع حلب منه نتيجة لذلك، كانت له معهم معارك ومناوشات أشارت إليها المصادر ربما كان أهمها طرده لهم من حران³²¹، وان كانت المصادر لم تفصل القول في الملابس والظروف التي أحاطت بذلك، ثم استيلائه على قلعة القرادي أثناء مطاردة بلبان الرشيدي له³²²، كما أنه حين توجه إلى البيرة واستولى عليها "جعل يشن الغارات على التتار الذين هم بشرقي الفرات، ويكبس من يستفرده منهم"³²³ فأظهر بذلك شجاعة فائقة.

إن فقد كان البرنلي مقاتلاً شرساً للمغول في أكثر من مناسبة. وإذا كانت ثمة شواهد على اتصاله بالمغول، أو تهديده بالاتصال بهم أو على أنه كان يثق فيهم على نحو ما جرى على لسانه من أنه يثق في وفاء هولاء ولا يثق في وفاء السلطان (بيبرس)، فإن كل ذلك لم يتبلور في سياسات محددة أو إجراءات فعلية أقدم عليها البرنلي تدل على انحيازه الفعلي إلى المغول ضد المسلمين، بل إن رفضه التوجه إلى هولاء بعد هزيمته في سنجار "ليقطع له البلاد من جهته"³²⁴ يعد دليلاً على الانتماء الإسلامي الحقيقي لهذا المتمرد الصعب الترويض. وبكل المقاييس، فإن أداءه كأمر مسلم يحارب المغول كان أكثر من ممتاز، يشهد بذلك انتصار عين جالوت في ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م، كما يشهد به حسن بلائه في سنجار وشدة قتاله للمغول حتى أنه سقط عن فرسه وانكسرت رجليه³²⁵. ومجمل القول إن هذا الأمير الثائر قد قام بدوره كقائد مسلم في مواجهة التتار كأحسن ما يكون.

تأثير مصر في حياة البرنلي

وفد البرنلي إلى مصر ثلاث مرات. وكانت المرة الأولى حين انقلب على مولاه الملك الناصر في معركة العباسة سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م وانضم إلى مماليك عز الدين أيبك

³²¹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٨.

³²² انظر ص ٣٢ من هذا البحث.

³²³ العيني، ج ١، ص ٣٢٢.

³²⁴ ابن أيبك، الدرّة الزكية، ص ٨٨.

³²⁵ النويري، ج ٣٠، ص ٤٥؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

فكان ذلك سببا في هزيمة الناصر³²⁶ فدخل مصر مع القوات المصرية ولبث فيها حتى سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م عندما فر من مصر إثر مشاركته في التآمر على أيبك. ولا نعلم شيئا عن نشاطه في السنوات الخمس التي أمضاها في مصر من سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م إلى ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥م.

ثم جاء إلى مصر مرة ثانية فيما يروي المقرئزي عندما فارق الناصر يوسف وسار إلى القاهرة فأكرمه السلطان (قطز) وخرج معه فشهد وقعة عين جالوت³²⁷ التي جرت في رمضان سنة ٦٥٨ هـ / سبتمبر ١٢٦٠م. ومن الواضح أن إقامته في مصر هذه المرة لم تطل حيث كان الملك الناصر قد أخرجه من السجن في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م عندما اجتاح المغول بغداد ومدن الشام³²⁸. أي أنه جاء إلى مصر وخرج منها مع قطز إلى عين جالوت في نفس العام.

وكانت المرة الثالثة التي نزل فيها البرنلي مصر في غرة ذي الحجة سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م عندما طلب الأمان من بيبرس بعد انكساره في سنجار ومفارقة أكثر العزيرية له. وأجابه بيبرس وطلبه إلى الديار المصرية وأكرمه وأنعم عليه بإمرة سبعين فارسا³²⁹. وبعد ثمانية أشهر تقريبا، قبض عليه بيبرس في التاسع عشر من رجب سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢م لتأمره مع سيف الدين الرشيد وعز الدين الدمياطي على قتله³³⁰ وأمضى بقية حياته في السجن حيث مات في سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠م³³¹.

³²⁶ المقرئزي، السلوك، ج ١ ص ٤٦٨؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥؛ ابن الوردي، ج ٢، ص ١٨٠ - ١٨١.

³²⁷ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥١٨.

³²⁸ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ١٥.

³²⁹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

³³⁰ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٥٧؛ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

³³¹ أبو المحاسن، المنهل، ج ٣، ص ٢١.

ونخلص من هذا العرض لإقامة البرنلي في مصر إلى أنه دخلها مؤيدا لعز الدين أيبيك وخرج منها بعد خمس سنوات هاربا منه بعد أن تأمر عليه، ثم دخلها مؤيدا لقطز وخرج معه تحت لوائه مقاتلا في عين جالوت، ثم دخلها للمرة الثالثة متمتعا بأمان وإكرام بيبيرس ولكنه لم يخرج منها هذه المرة بل سجن فيها إلى أن مات بعد سبع سنوات عقابا على تأمره على بيبيرس. ويؤكد سلوك البرنلي في مصر طموحه الدائم إلى السلطة والتملك ضاربا في ذلك عرض الحائط بكل الاعتبارات.

خاتمة

كان الأمير شمس الدين أقوش البرنلي تعبيرا صادقا عن العصر الذي عاش فيه، وهو عصر زوال ملك الأيوبيين الذين ساد بينهم الانقسام واعتمدوا في توطيد أركان دولهم أو دويلاتهم على الإكثار من جلب المماليك، وقيام دولة المماليك البحرية في مصر وما واجهته هذه الدولة من عقبات وما صاحب قيامها من تأمر واقتتال داخلي. وفطن البرنلي بذكائه الشديد إلى أنه لن يصل إلى المكانة اللائقة به كواحد من "أكابر" مماليك الملك العزيز غياث الدين الأيوبي إلا إذا سلك مسلك أمراء الأيوبيين ثم أمراء المماليك من بعدهم، وهو مسلك يعتمد على الجمع بين القوة العسكرية والدهاء والدبلوماسية لتحقيق الأهداف بغض النظر عن القيم والتقاليد، والمباح والمحظور من أمور الدنيا والدين.

وكان التمرد هو السمة الغالبة على هذا الأمير. فقد بدأ حياته العملية، أو على الأقل ذلك الجزء من حياته العملية الذي اهتمت به المصادر الإسلامية، بالتمرد علي مولاه الملك الناصر يوسف الأيوبي وأنهاها بالتمرد والتآمر على السلطان الظاهر بيبيرس البندقداري الذي أحسن إليه كل الإحسان وأكرمه فبالغ في إكرامه. وما بين تمرده الأول وتمرده الأخير كانت حياة البرنلي تطلعا دائما إلى السلطة والتملك سواء بوضع اليد، أو بالتآمر على السلطان الشرعي للبلاد.

واهتم البرنلي اهتماما خاصا بحلب. وبذل وقتا وجهدا كبيرين لتحقيق حلم طالما راوده بأن يصبح نائبا معترفا به على هذه المدينة المهمة. وسواء كانت أهمية حلب في نظر البرنلي ترجع إلى أهميتها الاستراتيجية أو الاقتصادية، أو إلى نشأته في ربوعها وقضائه قرابة ثلاثين سنة في بلاط سلاطينها، أو انتسابه إلى المماليك العزيرية في هذه المدينة، أو إلى نزوح البرنلي الملحوظ إلى الاتجاه شمالا في تحركاته - بين حلب والبيرة وحران - فقد بقيت حلب على الدوام تمثل حلمه المستحيل الذي لم ينعم بتحقيقه إلا لأربعة أشهر فيما يروي المقريري.

وكان دوره في محاربة المغول من العلامات الفارقة في تاريخ الصراع الإسلامي المغولي فهو المساهم مرة في تحقيق انتصار عين جالوت، وهو المتسبب مرة أخرى في تسجيل واحدة من الهزائم الفادحة بالمسلمين في سنجار ومن بعدها الموصل. وهو في الحالتين دور يحسب له لا عليه فقد أبلى كأفضل ما يكون البلاء في المرتين، فضلا عن مناوشاته المتكررة للنتار وانتزاعه بعض المواقع المهمة منهم كحران وقلعة القرادي.

أما في مصر فلا يمكن القول بأن البرنلي قد ترك ذكرى طيبة. ففي المرتين اللتين طالت إقامته بمصر فيهما تأمر على سلطان البلاد. فخرج في المرة الأولى هاربا - بعد خمس سنوات من الإقامة في هذا البلد - بعد أن اكتشف عز الدين أيبك تأمره والعزيرية عليه. وفي المرة الثانية قبض عليه ببيرس - بعد أقل من عام من استقباله له وإكرام وفادته بمصر - إثر اكتشاف تأمره مع سيف الدين الرشيد وعز الدين الدمياطي علي التخلص من ببيرس وتمليك البرنلي نفسه.

وعلى كل حال، فإن الحكم على شخصية البرنلي من خلال ما نسبه إليه المؤرخون من أعمال ليس بالأمر الهين. يصدق عليه ذلك كما يصدق على سائر أمراء بل وسلاطين المماليك. فأعظم المماليك شأنا وأنصعهم صورة، كقطز قاهر المغول، وببيرس الذي يرجع إليه الفضل في توطيد أركان دولة المماليك والنهوض بها، لم تكن أيديهم بريئة من دماء منافسيهم وخصومهم. فقطز كانت يده ملوثة بدماء فارس الدين أقطاي العدو الأكبر لعز الدين ايبك، وببيرس كانت يده ملطختين بدم قطز بطل عين جالوت، وعندما سأل

أقطاي المستعرب أتاك قطز عن قتل قطز، وأجاب ببيرس: " أنا قتلتته"، قال الأمير أقطاي: "يا خوند! اجلس في مرتبة السلطنة مكانه" فجلس ببيرس وبايعه أقطاي والأمراء³³². فهكذا كان قانون المماليك: من قتل الملك فهو الملك، لا يعيبه ذلك في شيء فالمؤرخون يلتزمون الحياد التام في أحكامهم على سلاطين المماليك، ولا يخلطون بين سفكهم لدماء خصومهم وإنجازاتهم العظيمة من أجل دولة الإسلام. فإذا وضعنا في الاعتبار أن البرنلي لم يثبت عليه في وقت من الأوقات أنه قتل خصومه أو منافسيه من أجل الوصول إلى الحكم، وأن جل اهتمامه كان ينصب على النيابة أو التملك، تبين لنا أنه كان يفوق أقرانه المماليك بمراحل في سلوكهم الدموي وفتكهم بخصومهم. ولم يكن تطلعه إلى الملك يشكل جرماً في نظره ونظر أتباعه بل وربما في نظر بعض خصومه. فالتهافت على السلطة كان سمة العصر، ولم يكن البرنلي إلا إفرازا لعصره شأنه في ذلك شأن سيف الدين قطز أو ركن الدين ببيرس البندقداري، وأن اختلفت أقدارهم وتباينت مصائرهم.

³³² المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٥٢٠، والخوند معربة عن الفارسية وتعني السيد العظيم أو الأمير . انظر زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، الزهراء كمبيوتر سنتر، ص ٢٢٨، القاهرة، ٢٠٠٥.

مراجع البحث

أولاً : المصادر

ابن أبي الفضائل (توفي في منتصف القرن الثامن هـ / منتصف القرن الرابع عشر م) مفضل:

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه E. Blochet في P.O., t. XII-XIV, Paris, 1911 . 1913-

ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) أبو الحسن بن أبي المكارم الملقب عز الدين:

الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٨٧

ابن أبيك (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) أبو بكر بن عبد الله:

- ١- الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب - تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور - القاهرة ١٩٧٢م
- ٢- الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية - تحقيق أولرخ هارمان - القاهرة ١٩٧١م
- ٣- كنز الدرر وجامع الغرر - ج ٨ - تحقيق أولرخ هارمان - القاهرة ١٩٧١م

ابن إياس (ت ٩٣٠هـ / ١٥٣٣م) أبو البركات أحمد محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

ابن بهادر (عاش في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) محمد بن محمد بن بهادر

فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر - مخطوط بدار الكتب
المصرية - رقم ٤٩٧٧ تاريخ - جزءان - ج ١، ورقة ١٠٩

ابن حبيب

(ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب
تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه - ج ١، نشر وتحقيق محمد
محمد أمين - القاهرة ١٩٧٦

ابن حجر العسقلاني

(ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد:
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - تحقيق محمد سيد جاد
الحق - ٥ أجزاء - القاهرة ١٩٦٦

ابن زنبيل

(توفي بعد ٩٦٠ هـ / ١٥٥٣م) الشيخ أحمد بن زنبيل الرمالي:
آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم الثماني -
تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٩٨

ابن شاهين

(ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧-٨ م) غرس الدين خليل بن شاهين
الظاهري:
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - عني بنشره
وتصحيحه بولس راوس - باريس ١٨٩٤م

ابن شداد

(ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم:
تاريخ الملك الظاهر - تحقيق أحمد حطيط - فيسبادن ١٩٨٣م

ابن العبري

(ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون
المطبي:
١- تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠
٢- تاريخ الزمان - ترجمة إسحق أرملة - بيروت ١٩٨٦

ابن عبد الظاهر

(ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) محيي الدين:

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق الدكتور عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦

ابن العماد الحنبلي

(ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) أبو الفلاح عبد الحي بن يحيى بن محمد:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ١٠ أجزاء - القاهرة ١٣٤٠ - ١٣٥١ هـ

ابن الفوطي

(ت ٧٣٣هـ / ١٣٣١م) عبد الرازق بن أحمد الفوطي البغدادي

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، نشر مصطفى جواد، بغداد، ١٩٣٢/١٣٥١

ابن كثير

(ت ٧٩٤هـ / ١٣٧٣م) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر

البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزء، القاهرة، ١٣٥١-١٣٥٨ هـ

ابن منظور

(ت ٧١١هـ / ١٣١١م) جمال الدين أبو الفضل محمد:

لسان العرب - طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ٦ مجلدات، المجلد الخامس

ابن الوردي

(ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر

بن عمر:

تتمة المختصر في أخبار البشر - ويعرف بتاريخ ابن الوردي - ٢ ج ، القاهرة، ١٢٥٨هـ/١٨٦٨م

أبو شامة

(ت ٦٨٥هـ / ١٢٦٧م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم
بن عثمان شهاب الدين:

ذيل كتاب الروضتين، تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي
بعنوان "تراجم رجال القرنين السادس والسابع"، القاهرة، ١٩٤٧.

أبو الفداء

(ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء
اسماعيل بن علي:

١- المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، الآستانة، ١٢٨٦هـ

٢- Aboul Feda, in R. H. C. H. OR, t. I, Paris

٣- تقويم البلدان - نشره رينو ودي سلان - باريس ١٨٤٠

أبو المحاسن

(ت ٨٧٤هـ / ١٤٩٦م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن
تغري بردي :

١- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ١٩٨٥

٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ١٢ جزءا -
القاهرة، ١٩٢٩-١٩٥٦

٣- الدليل الشافي على المنهل الصافي - تحقيق فهميم محمد
شلتوت ، طبع جامعة أم القرى، ١٩٨٣م

الأصطخري

(توفي في القرن الرابع الهجري / القرن العاشر الميلادي) أبو
إسحق إبراهيم محمد بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي:
مسالك الممالك - نشر دي غويه - ليدن ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م

البغدادي

(ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق:
مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - تحقيق علي محمد
البجاوي - القاهرة ١٩٥٤

الذهبي

(ت ٧٤٨هـ / ١٢٤٨م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان
قايماز شمس الدين:

كتاب دول الإسلام، دار إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر
الجزء الأول والثاني، ١٩٨٨

السبوطي

(ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين:
تاريخ الخلفاء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د
ت

الصقاعي

(عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) فضل
الله بن أبي الفخر:
تالي كتاب وفيات الأعيان - تحقيق دومينيك سورديل - باريس
١٩٨٥

العيني

(ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد
بن موسى:
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بمكتبة دار الكتب
المصرية رقم ١٥٨٤، ١٠/٤٩ - تحقيق محمد أمين - ج
١، القاهرة ١٩٨٧-١٩٨٨م

القرماني

(ت ١٠١٩هـ / ١٦١١م) أبو العباس أحمد بن يوسف بن
أحمد:
أخبار الدول وآثار الأول - بيروت ١٩٦٩م

القلقشندي

(ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله:

١- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة،
١٩١٣-١٩٢٠م)

٢- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - مكتبة التراث
الإسلامي بموقع نداء الإيمان على الإنترنت www.al-eman.com

الكتبي

(ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد سيد عبد
الرحمن فخر الدين:
فوات الوفيات، جزءان، بولاق، ١٢٩٩ هـ

المقريزي

(ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس أحمد:
١- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ - تحقيق محمد
مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م، والجزء الأول في طبعة
دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧
٢- التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها
- ترجمة أقيس البرلي العزيزي، الأمير شمس الدين -
مخطوط ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية - رقم ٥١٠
٣- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - جزءان -
بولاق، ١٢٧٠ هـ/١٨٥٣م، وطبعة دار صادر، بيروت،
ج ١

المكين جرجس:

(ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م) جرجس أبو عبد الله بن أبي اليسر
الملقب بالمكين:
أخبار الأيوبيين - مكتبة الثقافة الدينية د.ت.

النويري الكندي:

(ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب:

نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم
٥٤٩ - تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة - ج ٣٠ - القاهرة
١٩٩٠م

اليونيني:

(ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) قطب الدين موسى بن محمد:
ذيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء، مطبعة مجلس دائرة المعارف
العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م

بيبرس الدوادار:

(ت ٧٢٥هـ / ١٣٥٢م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري:
١- التحفة الملوكية في الدولة التركية - تحقيق عبد الحميد
صالح حمدان - بيروت ١٩٨٧
٢- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة - تحقيق زبيدة محمد عطا ،
الرياض - د.ت.

رشيد الدين:

(ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م) فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن
موفق الدولة:
جامع التواريخ، المجلد الثاني - نقله عن الفارسية الدكتور فؤاد
عبد المعطي الصياد وآخرون - القاهرة ١٩٦٠م

شافع بن علي:

(ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل
بن عساكر الكنانى العسقلاني المصري:
حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية - تحقيق
عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٩م

ياقوت الرومي الحموي: (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب

شهاب الدين:

معجم البلدان، ٤ أجزاء، بيروت ١٩٦٨، وطبعة القاهرة، ١٩٠٦

ثانيا: المراجع العربية والمعربة

- أحمد عبد الرازق: الرنوك الإسلامية - القاهرة ٢٠٠١م
- أحمد مختار العبادي: ١- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦، ص ١١٩
- ٢- في التاريخ الأيوبي والمملوكي - الإسكندرية ١٩٩٢م
- السيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، دون تاريخ
- جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٦٩، ص ٣٨.
- حامد غنيم: الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٣- الجزء الثالث
- حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧
- حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برقوق - الإسكندرية ١٩٧٦
- زين العابدين شمس الدين نجم: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، الزهراء كمبيوتر سنتر، القاهرة، ٢٠٠٥
- ستيفن رنسيومان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، الطبعة الثالثة، الجزء الثالث، ١٩٩٣
- سعيد عبد الفتاح عاشور: ١- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، دون تاريخ، ص ٢٠٢
- ٢- الظاهر بيبرس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١
- عصام محمد شبارو: السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري، السلاجقة - الأيوبيين، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩٤
- فايز نجيب اسكندر: السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة المسلمين، الاسكندرية ، ١٩٩٩

- فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠
- كليفور د بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، دراسة في التاريخ والأنساب، ترجمة حسين علي اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٩٤، ص ١٠٣
- محاسن الوقاد: مصر في العصر المملوكي - دراسات حضارية، مصر العربية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦

ثالثا: المراجع الأجنبية

Abou'L Feda, in R.H.C., Hist. Or., T. I

Boyle, J. A. : Cambridge History of Persia, Cambridge, 1968, t. V, pp.351 352

D'Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguï - Khan Jusqu a Timour Bey Ou Tamerlan 4 Vols, Amsterdam, 1852 t. III

Dussaut, R.: Topographie Historique De La Syrie Antiquè Et Médiéval, Paris, 1924

Encyclopedia of Islam, Art. Ayn Djalut, t. I, p. 810;

Gestes des Chiprois, dans R. H. G. S., Doc Arm, t. ii, p. 841, N. D.

Grousset, R.: L'Empire; Des Steppes, Paris, 1939

Howorth: History of the Mongols, London, 1975, t. III